د. سيف الإسلام بن سعود بن عبد العزيز آل سعود

@ketab_n
Follow Me
9.3.2016

الكنز التركي

رواية

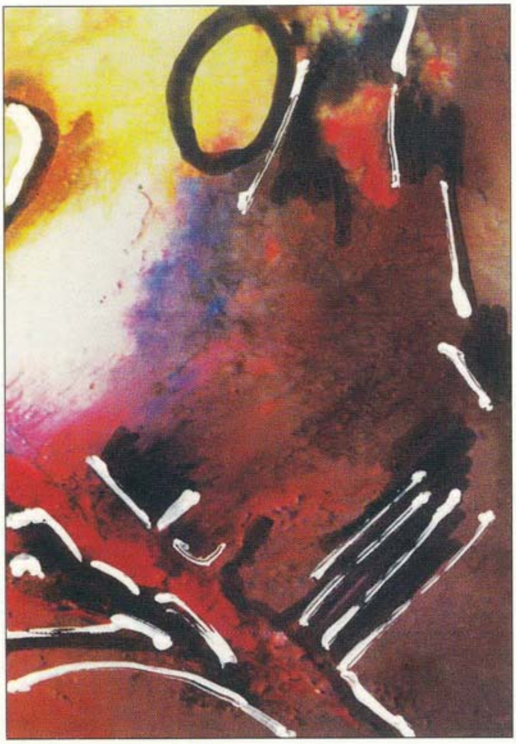

الفارابي

د. سيف الإسلام بن سعود بن عبد العزيز آل سعود

الكنز التركي

رواية

دار الفارابي

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الكنز التركي

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الكتاب: الكنز التركي
المؤلف: د. سيف الإسلام بن سعود بن عبد العزيز آل سعود
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 - الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2007
الطبعة الثانية 2008
ISBN: 978-9953-71-309-0

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً على موقع:
www.arabicebook.com

Twitter: @ketab_n

المحتويات

الإهداء 9

شكر 11

إشارة 13

الفصل الأول: نهايات 15

الفصل الثاني: خرائط يوم الثلج 31

الفصل الثالث: حكايات الحب.. والحرب 53

الفصل الرابع: مُحرضات البوسفور 131

الفصل الخامس: فقـــــد 151

الفصل السادس: بين الـنُخب 165

الفصل السابع: ...في بلاد الأفغان 199

الفصل الثامن: لا شيء 221

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الإهداء

لــــهُ... لهـــا

Twitter: @ketab_n

شكر

الشكر والعرفان لكلّ من أمدّني بمعلومة أو كتاب أو مخطوطة، عملت كلها ـ مع المخيلة ـ على إشهار هذه الرواية...

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إشارة

بعض شخصيات وأحداث هذه
الرواية هي من نسج الخيال المحض
ولا تمت للواقع بصلة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

نهايات

Twitter: @ketab_n

المكان: إحدى محطات سكة حديد الحجاز والمسماة إسطبل عنتر والواقعة بين العلا والمدينة المنورة.

الزمان: 26 آذار/مارس 1917م.

.. اهتزازات إحدى عربات قطار البريد والجند المنطلق للتوّ، والقادم من الشام؛ لم تكن عنيفة بعنف ما في داخل كبير مهندسي خط حديد الحجاز العتيد، والذي كان يرمز للمسلمين والعرب برموز شتى.

كان مختار بك العثماني مشتت الذهن، منكسر الروح، دامع العين وهو ينظر لآثار ليلة التخريب السابقة في منشآت المحطة، التي غادرها الريل[1] قبل لحظات، مُخلفاً وركابه شواهد عُنف عُربان لورنس[2] والذين يدَّعون - وهم يتسلّمون ذهب ذوي العيون

(1) الريل: كلمة تركية مُحرفة تعني القطار.

(2) توماس إدوار لورنس 1888هـ - 1935م مغامر، وجندي وباحث بريطاني. التحق لورنس بقسم المخابرات البريطانية بعد إتقانه للغة العربية وسكناه طويلاً في المشرق. أوقد جذور الثورة العربية ضد الحكم العثماني. اشتهر بلورنس العرب، له مؤلفات ومذكرات من أشهرها: \أعمدة الحكمة السبعة وثورة الصحراء. مات بحادث - يقال إنه مدبر - بعد اصطدام دراجته البخارية بسيارة مسرعة.

Twitter: @ketab_n

والبشرة المختلفة عنهم كلياً - بأنهم يناصرون الثورة العربية، التي أشعل أُوارها قبل أقل من سنة الشريف الحسين بن علي ضد الأتراك وخلافتهم المتهاوية!

لم تكن المصائب أخفَ وطأة من مُصيبة أخرى، راحَ مُختار بك ينظر في دلالتها المنثورة حبراً على أسطر خطاب، استحلفته زوجته فاطمة خاتون ألّا يفتحه إلا قبل أميالٍ معدودة من المدينة المنورة. . حيث مرقد الحبيب. وبما أن محطة إسطبل عنتر والمحطات التي تليها قريبة من مدينة الرسول الأعظم، وبما أن المسافة المتبقية ستكون - كذلك - محفوفة بمخاطر عديدة، فقد لا يتمكن من قراءة الرسالة التي جعلت قلب الزوج يدق بعنف بمجرد الإمساك بها، تحقيقًا للوعود البينية بين الزوجين؛ وبما أن هذا متحقق أو في طريق التحقق، فقد فضّ مختار بك الرسالة، ويداه المعروقتان ترتعشان، ليقرأ التالي:

"زوجي العزيز، لا شك أنك تقول الآن: لقد أتت هذه الرسالة في غير أوانها. أما أنا فأقول: لقد تأخرت هذه الرسالة كثيراً قبل أن تُكتب وتقرأ.

. . . صراحةً!! لقد ترددت طويلاً قبل أن أخط هذه الأسطر من اللوعة، لكنني تساءلت: إلى متى هذا التردد؟ ومِمَّ الخوف وكل شيء هبناه وخُفنا منه قد وقع. . في داخل دولتنا السنية، وفي داخل أنفسنا المكلومة. . آمالُنا وأحلامنا الشخصية ذهبت أدراج

Twitter: @ketab_n

الرياح، حتى وأنت تكابر في الاعتراف بهذا ساعة وداعي لك في دمشق.. أتذكر تلك اللحظات؟ ألم تتساءل: لِمَ لم أطبع على شفتيك قبلات الوداع المعتادة التي تكاثرت في السنوات الأخيرة، ولم أقبل حتى أن أنظر في عينيك -رغم محاولتك العنيدة- مخافة أن تمنعني لحظة حُبٍ شاردة، عما نويت أن تظهره رسالتي التي دسستها في جيبك قبل مغادرتك المنزل، راجيةً بإلحاح ألّا تفض خاتم إغلاقها.. إلا وأنت ترى المعالم الأولى لمدينة الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم... كم أحببتك يا مُختار! لكن الحب مثل الزهور، يحتاج لماء العاطفة والحنو والرعاية.

قبل أربعين عاماً كان زواجنا.. أتذكر؟ في سنة الحب المُلتهب تلك، تَصادف تسلطن مولانا عبد الحميد الثاني، وكأن الدنيا تقول لنا: إن خواتيم الأشياء ليست مثل بداياتها دائماً!

كنتَ في العشرين من العمر، عندما أتيتَ لتطلب يدي من والدي؛ طالباً نابِهاً لا ينافسك أحدٌ في تطلعاتك للنجاح والتميز وأنت تدرس في مهندس خانه(1)، تلك المدارس التي كانت العائلات الإستنبولية تصر على ترديد اسمها القديم حتى وأحد

(1) مهندس خانه: تعني مدارس دار الهندسة، التي أُنشئت في اسطنبول عام 1781م. وفي تلك المدارس كانت هناك فروع عديدة، منها: الهندسة المدنية. أصبح اسم المدارس فيما بعد دار الفنون المهتمة بتخريج مهندسي المواصلات والمرافق العامة.

Twitter: @ketab_n

خريجيها الجُدد يتقدم لخطبة طالبة مستجدة في دار المعلمات.. ويقول لكبير عائلة فاطمة صبري أوغلو:

ـ أنا، مختار إسماعيل، خريج جديد في دار الفنون أتقدم - بكل فخر واعتزاز - لطلب يد ابنتكم المصون فاطمة.

لم يتردد والدي الذي كان من العاملين في قصر السلطان عبد العزيز[1] في الرد على مضمون التعريف بالنفس وكأن الموضوع الرئيس الذي جئت من أجله قد تم نسيانه.. مؤقتاً.

ـ يا ابني مختار، لا تقل: دار الفنون إنما هي مهندس خانه. أنا أريد من زوج ابنتي - إن كان هناك نصيبٌ لهذا الزواج أن يتم - أن يفتخر بماضيه السلطاني وكل ما عمله حُماة الإسلام. لا أريد من زوج المستقبل أن يحمل في قلبه ذرة من تلك الاتجاهات السياسية والفكرية الملعونة التي انتشرت في بلادنا هذه الأيام!

من خلال فتحة صغيرة لستارة تفصل بين غرفة الاستقبال وقسم النساء الداخلي، رأيتك تهز رأسك دلالة على إنكار التُهم التي أُلصقت بك بشكل جُزافي ومفاجئ.. ثم تقول:

---

(1) السلطان عبد العزيز: أحد سلاطين بني عثمان المتأخرين 1861- 1876م تفجرت في عهده عدة ثورات داخلية على الخلافة العثمانية. كما زاد التدخل الأوروبي في الشأن العثماني رغم محاولات الصمود الذي كلف السلطان عبد العزيز حُكمه.. ثم حياته!

Twitter: @ketab_n

ـ لا يا أفندي صبري أنا من أكثر المتعصبين للماضي وما يرمز له، وأكثر المهندسين تعلقاً بسلطاننا ودولته السَّنية، ومازلت أذكر ما ذكرته لي أسرتي من محاولات مولانا السلطان الراحل عبد العزيز لتأخير موجة التغريب، وصد هجمات الكفار الثقافية، لكنني اليوم لم أقدم لبيتكم الكريم من أجل هذا بالطبع، ولا من أجل التدليل على قواسمنا المشتركة، بل أتيتُ لأكون أحد أفراد أسرتكم.. بعد رأيكم وموافقتكم!

وافق والدي ووالدتي والجميع عليك يا مختار، فقد كنت جذاباً، مُقنعاً، طاغي الحضور، فلم يستطيع أحدٌ على رد طلبك.

..منذ أربعين عاماً وربيع الأزهار يداهم الكون وقلوبنا، جئتني على حصان أبيض من الحلم، لأقضي معك وفي بيت الزوجية ما ظننتها أجمل أيام العمر..أجمل..أفضل..أسعد!! يا لتفاهة تلك الكلمات! فما هي إلا وصفٌ لمرحلة تفصل بين مراحل وكأنها سعادةٌ بين شقاءين وفي ذلك تدليس على النفس..كبير.

..تذكُر؟! لفتت إجادتك لعملك وشديدُ تعلقك بما يرمُز له مولانا عيون قصر يلدز السلطاني، تلك العيون التي راحت تراقب بذعر شباب الأتراك ومعارضتهم المتشكلة في تنظيمات ولجان سرية شتى.

..نعم سلِمتَ وقليلون من عمليات القبض والمداهمة والنفي

Twitter: @ketab_n

التي شملت مجاميع كبيرة من أصحاب التنوير في الطبقة الوسطى.. ومنهم زملاؤك المهندسون. كانت أيام رعب وبلبلة، نجوت منها يا مختار بفضل انكبابك - فقط - على عملك وتميزك عن نظرائك الفنيين، وبفضل بُعدك عن كل التجمعات الثورية التي راحت تنتشر بسرعة في البلاد العثمانية.

..حينها كنتَ، والحظوظ تتقاطع، قد استُدعيتَ، بعد زواجنا بأربع سنوات تقريباً إلى قصر مولانا، وهناك أُمرتَ أن تُكّون فريقاً هندسياً تابعاً لقصر يلدز...بل هو أحد أجنحة ذاك القصر الذي كان يشرف على رُقعة كُبرى من أرض الله الواسعة.

..وإن لم تخني الذاكرة فقد كانت أولى مهامك، الإشراف على سلامة خطوط الإمداد للقوات العثمانية في البلقان، التي شهدت أراضيها قبل سنوات قليلة ثورات عاصفة ضد سلطاننا وحكومته.

بعدها بأشهر قليلة - إن لم تخني ذاكرتي العجوز كذلك - قدَّمَ وزير الأشغال العامة السابق في الآستانة، مشروعاً يقضي بإنشاء خط حديدي يربط الشام - وهي إحدى ولايات مولانا المهمة - بالأراضي المقدسة.

وبالرغم من أن الكثرة من المهندسين ورجال القصر قد أكدوا لمولانا استحالة تنفيذ فكرة الوزير جغرافياً وأمنياً واقتصادياً، كنتَ الوحيد، مع قلائل، الذين انكبوا على الخرائط وأدوات الرسم

Twitter: @ketab_n

الهندسي على أمل تفادي المعوقات الكثيرة والخطيرة للمشروع الوليد، وعلى أمل تنفيذ فكرة الخط الحديدي ذاك فيما بعد.. وتفنيد ما كان يُقال: من أن حلم الدولة التي كانت تريد إثبات مقدرتها - المشكوك فيها - على الصمود، هو مبعث المشروع لا غيره، وأنها بذلك تهدر الأموال وتُخاطر بالأرواح.. لمجرد الـحُلم!

..نعم سنوات عديدة انقضت ومازال حُلم خط سكة حديد الحجاز يراودك بنفس درجة تعلق سلطانك به وبرموزه.

..في يومٍ من بواكير عام 1900م - إن كنت تذكُر - عُدتَ للمنزل وأنت تكاد تطير من الفرح، ولـمَ لا؟ وسيد القصر الكبير يوكل إليك مُهمة تنفيذ الخط البرقي الحجازي الممتد من السلط إلى المدينة المنورة من أجل الاطمئنان على أمن ومعيشة قوافل الحجيج. وكأن تلك المهمة السلطانية إيذانٌ بإناطة أجلّ قدر بك - يا سيد المهندسين - لتقوم، مع مساعديك وزملائك، بتنفيذ ما كان حُلماً مقدساً بعيد المنال.

..وقد كان ذلك:

أخبرتني ذات صباح من صباحات شهر أيّار/مايو عام 1900م أن السلطان قد كوَّن مفوضية عُليا في إستانبول تشرف على تنفيذ الفكرة العظيمة التي لطالما سكنت عقل وروح مولانا.. وكبير مهندسيه!

Twitter: @ketab_n

مختار يا عزيزي: كنتَ الوحيد، من غير الوزراء، الذي تم اختيارك في تلك المفوضية العتيدة؛ ومن المرات القليلة التي كنت أراك فيها لا تتعصب لقوميتك العثمانية، وتتعالى على فوقيتك الساكنة في نفسك على القوميات الأخرى المنضوية تحت لواء دولتنا السنية، هي تلك المرة التي اختير فيها عزت باشا العابد[1]، السوري العربي، كمسؤول أول عن المفوضية العليا.. أتدري لماذا كان تنازلك عن أنفة القومية العثمانية حينها؟..فقط من أجل الخط الحديدي الحجازي ذي البعد الإسلامي.. هل لديك تفسيرٌ لذلك التصرف غير ذلك؟!

عزيزي مختار:

رغم المتاعب الجسدية والنفسية، قفزت على كل المصاعب مُحققاً النجاح تِلوَ النجاح. بدءًا من أيلول/ سبتمبر عام 1900م عندما تم الاحتفال بتدشين موقع القدم الشريفة جنوب الشام، مروراً - كما أخبرتني - بخط مزيريب ودرعا، ثم خط دمشق الفرعي، المتزامنة إقامته مع الخط الامتدادي الآخر الرابط بين الزرقاء

(1) عربي سوري تولى منصب السكرتير الثاني للسلطان عبد الحميد، وكان سبباً رئيساً لقيام السلطان عبد الحميد بإنشاء وتنفيذ مشروع خط حديد الحجاز، وذلك من أجل تقوية مركز الخلافة عبر إحكام القبضة على الأماكن المقدسة وكسب مشاعر المسلمين.

Twitter: @ketab_n

وعمان، لتنتقل بعد ذلك إلى عمل إضافي.. هل نسيته؟ أنا لن أنسَاه! إنشاء تفريعة حيفا الممتدة صوب الغرب حيث البحر[1].

..أما نشوتك العظيمة فقد كانت أيام الإنجاز التاريخي اللاحق: بعد اكتمال المراحل الأولى، كنت تأتي لمحبوبتك القديمة، لتقول لي وأنت بين خلائط مشاعر الحب والزهو: نحن الآن نمد الخط بين عمان ومعان في طريقنا إلى مدينة الرسول الأعظم، صلى الله عليه وسلم!

أما بعد ذلك فحدث ولا حرج: عندما أسرد هُنا أسماء مثل معان وتبوك ومدائن صالح والعلا ثم أحفر على أسطر هذه الرسالة اسم المدينة المنورة، عندها أحاول - عاجزة - أن أوجز ما يصعب تدوينه ورصده، كلما تلبستك أحاسيس الفخار والعزة والتألق يا مختار.. ولـمَ لا؟ وأنت تحقق الحلم وتفي بوعدك لمولاك.

جئتني يوماً بعدما اخترت دمشق سكناً لنا مع الأولاد، لتصف لي كيف حملك الناس في أول أيلول/سبتمبر 1908م على أعناقهم في حفل حضره أعضاء اللجنة السلطانية وكبار رجالات الدولة السنية في الشام والحجاز، وكأنني الآن أسمع تلك الكلمات المنطلقة من فيك والمشابهة للسيل الهادر.. كنت تقول يا حبيبي القديم:

(1) البحر الأبيض المتوسط

Twitter: @ketab_n

"خارج أبواب المدينة المنورة.. شمال المسجد النبوي الشريف.. وبجانب أول معاول حفر أساس مسجد الحميدية[1]، أُنيرت الكهرباء لأول مرة في حاضرة الرسول الأعظم لحظة افتتاح الخط الحجازي، وكأنها توثق وتكشف مدى حب أهالي المدينة المنورة لي. لقد حملوني، يا فاطمة، على أكتافهم وأكتاف الزوّار والمدعوين من أصقاع العالم الإسلامي، وهتفوا باسم السلطان واسمي.. وبالكاد هتفوا باسم المشير كاظم باشا المدير العام للسكة الحديد، الذي عُيّنَ والياً على الحجاز فيما بعد!!"

أين أنا من كل هذا.. عواطفي.. أحاسيسي.. مشاعري؟ أنت النجاح كله، وأنا كمٌ مهمل يعود له الشخص الناجح بين حينٍ وآخر لينقل له أخبار التألق وملخص أوامر السلطان وصدره الأعظم في هذا الشأن الهندسي أو ذاك، وبين هذا وذاك تلك السرديات عن نبض الشارع الإسلامي وعن لسانه اللّاهج بالشكر لمولانا ومهندسيه.. ومختار!

وفي إحدى الدور العربية بحي الميدان الدمشقي كانت هناك امرأة ملأها الغرام - في السابق - للشاب خريج مهندس خانه، امرأة رأت ثمرة الحب عبر شفيق وسعيد[2]، امرأة لم يكن ينقصها

(1) جامع العنبرية فيما بعد.

(2) ابناها وابنا مختار بك.

Twitter: @ketab_n

المال والجاه والحشم، وكل ما تطلب الأنثى. . وإنما ملء فجوات العواطف، وإسكات رغبات الاحتواء.

باردة يداك. . مبعثرة نظراتك. . تائهة مشاعرك، كانت تلك حالتك في كل مرة تعود إلى دمشق بعد رحلة تفقد لهذه المحطة أو تلك، أو بعد سفرٍ للآستانة حيث الصخب السياسي، ونزاعات الفرقاء الذين كانوا يتكاثرون بشكلٍ خارق مذهل. .مختار يا من كنت حبيبي ذات يوم:

عزائي السابق وأنت تهمل حلمك وحبيبك الأول القديم، هو أنك أصبحت نجماً سياسياً، إضافةً "لخارقية" نبوغك الهندسيّ. واحدة من هاتين الصفتين تجلب دائماً الأعداء، وبالتالي همّ الدفاع عن المكانة والنجاح، لكن شيئاً فشيئاً قادتني حاسة الأنثى التي لا تخيب، إلى اكتشاف ما لم أكن أصدق أنك ستفعله يوماً يا مختار؛ تأكد لي أنك في كل مكان مر به الخط الحجازي أقمت علاقة عاطفية مع هذه المرأة أو تلك ممن احتلت ركناً في منـزل العشق القديم الذي بنته سوياً أحلامنا. . الساذجة. في البداية تعاليتُ على الشائعات. . تجاهلتُها بعد ذلك. . كرهتها لاحقاً. . لم أعد أُقاوم اندفاعي لسماع تفاصيلها. . في آخر الأمر!

أكد لي كل ما يقال عنك تلك اللمسات الباردة، وقُبلات المجاملة التي تموت قبل أن يُشرع فيها؛ في أنفاسك يا مختار، كنت أشم عطر فتاتك المجهولة في الأصقاع التي بنيت على

Twitter: @ketab_n

أراضيها حلمك، وبنيت على أزمنتها قصور سعادتك ورغباتك. قلبك وأنت تحتضنُني كلما تلبَّستَ - مُرغماً - دور العاشق الولهان، كانت دقاته تقول لي: ليس هذا مختار الذي تعرفينه.. إنه إنسان آخر لم يسبق أن عرفته، فضلاً عن أن تكوني حبيبته وولهه الأول القديم.

والآن وكل شيء يضطرم في العواصم والمدن، وكل شيء يدعو إلى الخوف، وطلقات الثوار تختلط بمظاهرات القوميين واعتصاماتهم، الآن أسمع أنك قررت، يا حبي القديم، الاستقرار في المدينة المنورة لتكون بجانب آخر الزوجات التي يقال: إنك عشقتها حتى الجنون، حتى وأنت تنكر هذا وتتحجج بمستلزمات الوقوف مع فخر الدين باشا في محنته المدينية!

..الآن، وهذا يحدث، لابد أن أطلب ممن كان حبيبي، آخر أمنيّات من لم يُعرف أنها تُصرح برغباتها عادةً.. حتى لمن كانوا يخالطون الأوردة والأرواح، لنعدْ بعد كل سنوات الكذب على النفس وتجرع كؤوس الآلام والأحزان التي خِلناها السعادة والمثالية الخالصة؛ لنعدْ إلى المربع الأول؛ وكأنك لم تعرف طالبة دار المعلمات ذات الجديلتين، وكأنني لم أحب الشاب المهندس الوسيم فارع الطول ذا العينين الجذابتين اللتين كانتا تحكي لي آلافاً من قصص الحب والعشق والوله؛ أسقط يا مختار سرابيات تلك الأيام الخوالي ولأسقط أنا ذكريات التعلق وخمريات أزمنة الحب،

Twitter: @ketab_n

ولنفترض، عبثاً، أنك لم تعرفني ولم أعرفك، لم أعد أستطيع الاحتمال والتشكل في هيئات المخدوعة برضاها، والمتعلقة بقضاءِ التحايل والتدليس.

لماذا الآن وأنت تواجه الموت وسقوط الحلم القديم؟

أُجيبك: هذه الرسالة تُخبرك، كما ستُخبرك فيما بعد - على الأرجح - قذائف الثوار، وإن اختلفت الدوافع: أنْ كفى!! فلكل شيء نهاية.. أحلام إطالة أعمار الدول.. وسراب الحب!!"

وكأنَّ تلك المرأة التي تملأ الخيباتُ روحَها، كانت تتطلَّع إلى ما وراء الـحُجب. ففي اللحظة التي انسابت فيها دمعة حارقة على خد مختار بك، وداهمته أحاسيس الشعور بالذنب والمفاجأة والاستنكار، سُمعت طلقات رصاص كثيفة تأتي من جانبي عربات القطار الحجازي المارّ - في تلك الساعة - بمحطة بواط، والمنطلق جنوباً صوب المدينة المنورة التي لا تبعد سوى أربعين ميلاً من حدث مختار بك المزدوج.

مرت رصاصة.. رصاصتان.. بل ثلاث رصاصات فوق رأس كبير المهندسين العثمانيين، الأمر الذي دفع - غريزياً - الجميع في قاطرته للانحناء الشديد إلى حد ملامسة أرضية القاطرة؛ تفادياً لمحشوّة رصاص قاتلة قد تنقل أحدهم إلى مصاف الشهداء، الذين يصف كل المقاتلين - أصحاب الدين الواحد - قتلاهم في أوطاننا المشرقية.. بأنهم منهم!

Twitter: @ketab_n

في وضعية الانبطاح اللاحقة كانت عينا مختار بك تبحثان، بنهم وقلق، عن شيئين مهمين جداً له: رسالة زوجته فاطمة خاتون، ورسالة أخرى سرية يرتبط محتواها وأرواح العديدين من جنود السلطان المحاصرين في شريط ضيق من الأراضي الحجازية.. إنها رسالة تتعلق بسبائك الذهب الـمُرسلة- عبر إحدى القاطرات - للحاميات العثمانية في الحجاز، وكيفية توزيعها على الـجُند وقادتهم، وعلى رؤساء القبائل العربية، الذين مازالوا - على قلتهم - حائرين: إلى أي جانبي القتال ينحازون؟!

وبينما كان الرصاص لا يزال يُطلق بغزارة من بنادق فرسان الثورة العربية وهجانتِها، وجد مختار بك إحدى الرسالتين، اللتين كان يظن أنهما في حرزٍ مكين لولا صيحات الموت الناطقة بالعربية، والمشحونة برغبات المكافأة والاستزادة من المعدن الإنجليزي الأصفر الرنان.

...الرسالة الأخرى المفقودة كانت عن.. الذهب التركي!

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

خرائط يوم الثلج

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المكان: أحد فنادق العاصمة الأردنية عمان

الزمان: الساعة السابعة والنصف من صباح يوم 22 كانون أول/ ديسمبر 2001م.

" أنا أعرف من أكون: أنا مهند السعدي، صباحي بارد مُثلج، ويومي الأردني هذا هو أحد آخر أيام هذه السنة المليئة بنصف النجاحات و.. الكوارث والإحباطات و.. "

بهذا الشكل، عادةً وإن اختلفت الأزمنة والأمكنة، يُذكِّر مهند نفسه كل صباح عند الاستيقاظ من نومه القلق المعتاد، لثوانٍ قد تطول أو تقصُر.

يروح هذا الأربعيني السعودي يتأكد - كما كل صباحاته - من الأبعاد الوجودية التي تتحكم دائماً في البشر، ولكنه وفي صباح عمان المُثلج ذاك، راح يزيد من عندياته معاني أخرى عبر استيعاب الظروف اليومية المحيطة: أن تحيا كمشرقيّ عربيّ في يومٍ من أيام النصف الثاني لعام 2001م!

لم يكن مهند محتاجاً لتنبيهات مأمور هاتف الفندق، والمشيرة بإلحاح للنزيل الجديد، بأن طلبه المتكرر، قبل ساعتين فقط، بأن

Twitter: @ketab_n

يتم إيقاظه بأي شكل، قد أُجيب من المختص وبعدد مرات أكثر مما طلبه النـزيل الـمُجهد، من جرّاء تأخر طائرته القادمة من قبرص للعاصمة الأردنية، تأخراً أكَّد مطارا السفر والوصول أنه استثنائي بشكل غريب.

أخذ مهند وهو لايزال في فراشه يستعيد مرةً أخرى، أحداث الليلة الماضية، والحوار الداخلي الذي دار بينه وبين وحش الأسئلة وقلق المعرفة داخل نفسه:

"كم تعب يورغو وهو يحاول إخراجي من مصائد الشرود الطويل الذي يعرف الأصدقاء الـخُلّص أنه راح يستعذب في الآونة الأخيرة معانقتي، حتى والحياة الـمُراوغة تخرُج إليّ بأفضل ثيابها.. يوماً هنا ويوماً هناك.

..لكن يورغو وآخرين من رجال الأعمال القبارصة يعرفون أيضاً أن ضيف شرف حفلهم الذي أقاموه له - أو لهم - بعد فوزهم المشترك بأحد عطاءات توريد أنابيب البولي أثيلين للعراق ضمن اتفاقية النفط مقابل الغذاء، والتي أقرتها منذ سنوات الأمم المتحدة، لا يفرق دائماً بين همومه الخاصة وأتراح أمته الصغيرة والكبيرة.

عشاء التفرنة(1)، والأحاديث الحميمية والجوّ الاحتفالي الرائع؛

(1) اسم لأي مطعم يقدم الأكلات اليونانية التقليدية.

Twitter: @ketab_n

لم تستطع كلها إسكات مخاوفي الداخلية التي راح شرودي المتعاظم يعبر عنها خير تعبير.

مال يورغو برأسه وبقايا التزكزيكي مازالت عالقة في طرفي شاربه الكثيف.. ليهمس لي:

"أنا أعرف بما تفكر به الآن يا دكتور مهند: أرباح المشروع العراقي الذي يكاد يُنتهى منه ليست كافية لأن تُدخل الفرح إلى قلبك، أنت مشغول بما يحدث في داخل بلادك، وأزمة دولتك مع العالم الخارجي، يا صديقي لست مسؤولاً عن كل هذا، ولم يجبرنا الرب على أن نقسم أرواحنا وعقولنا على أكثر من شأن! لنشرب أنخاب نجاحنا المشترك ولنسعد بهذه اللحظة فقط.. بالله عليك يا مهند أرني ابتسامتك، ارفع نخبك.. كأس "البيريه" ولأرفع أنا وبقية الأصدقاء كؤوس الذي تقولون عنه في بلادكم إنه يُدخل النار!"

أصاب القبرصي ولم يصب! أنا مشغول - فعلاً - بما تتعرض له بلادي وستتعرض له بعد زلزال 11 سبتمبر.. صدقت في هذا يورغو، وجانبك الصواب عندما طلبت مني أن أكُفَّ عن التفكير في المسائل الأخرى الكبرى، بينما نجاحاتي الصغيرة تؤسس لحياة مُرفهة نسبياً، بعيداً عن تخوم هموم الأهل والبلد.. مثلي لا يفرق بين هذا وذاك.. بين الخاص والعام، بالرغم من جاذبية الأول، خاصةً وإن بدا لك أنك تعاقب العام لتجاهله لك وتهميشك. أنا لم

Twitter: @ketab_n

أقع، ولن أقع، أسير إغراء انقسام خلايا حب الذات والارتباط بالشأن العام.. إلا بمعجزة!

شيء آخر لم يعرفه يورغو وغيره من أصدقاء عشاء المطعم الليماسولي: شرودي أضاف إلى تضخمه، تلك الهواجس من ردة فعل قادمة، لو قُدر لي أن أنشُر ذات يوم ثاني مؤلف أدبي لي.. يا للتحايل! نقوم نحن البشر بتقرير ما ننوي فعله، ثم ننفذه، ونُحيل بعد ذلك هذا الأمر وما ينتج عنه للقدر.. سبحانك ربي!

..نعم! أنا مُقدم على شيء، مجهول، له علاقة بكل شيء في بلادي: بالمجتمع والسياسة والتاريخ.. أبعد هذا، وتبعات غزوات واشنطن ونيويورك تترى، لا يكون لشرودي وقلقي عذرٌ عند الأصدقاء؟

..أهذا كل شيء؟

الحقيقة أن نفسي، وهي ترزح تحت سحب الهموم الكثيفة، كانت لا تُخرِجُ إلا ما أردت من تعاليل ذاك السرحان والشرود، لكن لا بأس! سأُزيح - ما استطعت وبشكل مؤقت - تلك القسمات التي ترتسم على وجوه القلقين عادةً، مسايراً الجوّ الاحتفالي الذي استمر منذ السابعة مساءً وحتى العاشرة، حين ذكّرنا صديق رحلاتي الدائم اليوناني العجوز دولاتوس بموعد الطائرة التي ستُقلنا من مطار لارنكا إلى عمان، وأنه سيكون بعد خمس دقائق من منتصف

Twitter: @ketab_n

الليل، وأن رحلتنا صوب المطار بالسيارات يمكن أن تستغرق ساعة كاملة، سيقطعها المحتفلون المغادرون منهم والمودعون، بين المدينتين الساحليتين ليماسول ولارنكا.. ما لم تُحدث نشوة البعض ما لم يكن في الحسبان!

..أتذكر أيضاً:

وأنا أُدخل نصفي العلوي في المعطف الشتائي الثقيل قبل أن يصافح وجهي هواء الثلث الأول من ليل البحر المتوسط القارس البرودة والعاصف، حانت التفاتة مني للمحتفلين والمعاتبين الآخرين من أهل الغرام، والذين اختاروا بعناية أماكنهم الدافئة التي تنيرها شموع المطعم الليماسولي الشهير.

.. ثنائيات الحب تكاد جباههم تتلامس.. أصابع أيديهم متشابكة.. يتهامسون بكلمات الهوى الأزلية.. يا لقلوبهم الفرحة!..لا!! بل هم بالتأكيد مثلي، كانوا محمّلين بالأسى والهواجس، لكنهم يغسلون كل هذا عندما تقول أعينهم الهائمة ما لم تقله دواوين الحب ورسائل الغرام.

بصعوبة بالغة نهض مهند من فراشه، لكنه لم يستطع الوقوف طويلاً لشعوره بدوار مفاجئ من جراء الإرهاق؛ مما اضطره للجلوس على طرف السرير الوثير، وللحظات لاحقة استمر يستحضر ذكريات الساعات الماضية وهو يحلق في فراغ الغرفة:

Twitter: @ketab_n

" . . .دكتور مهند أخبار سيئة: الطائرة - بسبب العاصفة الثلجية - سيتأخر إقلاعها حتى الساعة الثانية والنصف صباحاً! "

. .نعم! إني أتذكر نبأ يورغو المزعج، أقول: مزعج؛ لأنني على موعد هام الساعة الثامنة والنصف صباح اليوم الثاني مع تحسين الفواز السياسي الأردني السابق، ورجل الأعمال الحالي. تحسين وبعد انقطاع سنتين من الصداقة اتصل بي في الرياض طالباً أن يأتي لعاصمتي أو أن آتي إليه في عمان على أن يكون هذا بشكل عاجل لا يقبل التأخير. . فالأمر في غاية الأهمية!

أنا أعرف تحسين الفواز، فهو رجل لا يخلط المزاح بالجد في أقواله، ويعني كلّ ما يقوله، وعندما يطلب مقابلتي بهذا الشكل فلابد أن في الأمر ما لا يقبل التسويف، ولا حتى التفكير بمقدار جديته!

وافقتُ على مقابلته في عمان بعد يومين، على أن أمرَّ على قبرص ليومٍ سابق لمقابلته، حيث سأُنهي آخر ارتباط مشروعي العراقي المشترك مع الشركاء القبارصة.

حال سماعي لبشائر يورغو واضطراري للبقاء ساعات إضافية في مطار لارنكا عرفت أن أُمنياتي باقتناص سويعات من النوم قبل لقائي رجل الأعمال الأردني الصديق، هذه الأمنيات لم تكُن إلا سراباً، والدليل هو هذه الحالة من الدوار والغثيان وأنا أتحسس أطراف سريري في صباح عمان المُثلج.

Twitter: @ketab_n

. . آه! الثلج كم أحب هذا المظهر الطبيعي، كم تخطف قلبي تلك الندف البيضاء المتساقطة من السماء لتفترش السكك وأسطح المنازل ورؤوس البشر. . يا للجمال!! لونٌ أبيض في كل مكان!

تسمرتُ واقفاً لنصف ساعة أمام نافذة فندقي الأردني حتى الساعة الرابعة والنصف صباحاً؛ كنتُ مسحوراً، ليلتها، بالغلالة البيضاء التي تكسو فيلادلفيا[1] وأفقها الذي يزيده البرق الخاطف جمالاً وبهاءً. . وحينها سرحت:

كم تمنيتُ أن أعيش - وحيداً - بقية العمر في مدينة يكسوها الثلج مدار العام، فلابد أن أهالي تلك المدن الـحُلم لا تعرف قلوبهم البيضاء - مثل طقسهم - إلا النقاء والطهارة. . لكن أحقاً لا آلام ولا أحقاد ولا جرائم تحت أسقف منازل مُدن الثلج؟ الواقع الذي لطالما هزَّ أحلامنا يقول: لا!

ندف الثلج لاتزال تسح بسكينة ووقار خلاب، حينما أخذتني أفكاري إلى هناك. . إلى النقيض:

. . إلى أرض الشمس المحرقة، إلى الأرض التي يخال الجميع أن لهيب جرمها السماوي الكبير لا يترك حقيقةً إلا أظهرها، أرض التاريخ والرمال والملح. . والزيت.

أنا مثل الكثيرين، ظننت أن معرفتنا بظروف بيئتنا الطبيعية

---

(1) اسم عمان القديم.

Twitter: @ketab_n

والثقافية كانت كافية لتوقع إيقاعات حياتنا في جزيرة العرب: مجتمع يخرج من العزلة الحضارية والأمية التعليمية والخوف من الجديد.. إن لم نقل الحقد عليه، إلى نقائض تلك المفردات، ولـمَ لا وآليات تلك النقائض تُغرق بفيضانها الحجر والبشر في بلادي؟ مالٌ وفير يؤكد الجميع - تقريباً - أنه نعمة، ومجتمع يسهب من له مصلحة في عدم التنقيب عن الحقيقة بقوله: إنه متجانس صلب. هناك أيضاً حكومة زادتها السنون والأحداث، المختلفة كلياً عن الحاضر، قُدرةً على المجابهة وخطف الانتصار حيناً ونصف الانتصار حيناً آخر.

..أنا مثل الكثيرين ظننتُ في السابق أن ما قيل آنفاً هو وصفٌ لحالة، وتقدير لواقع، حتى أظهرت شاشات التليفزيون يوم 11 سبتمبر/أيلول أننا كنـا غافلين عن حقائق لها مقدمات حدثت في الماضي وتناستها ذاكرتنا الضعيفة حتى اليوم.

لم يكن شيخ القاعدة[1] جهولاً وهو يختار الأكثرية من غُزاة ناطحات سحاب أمريكا، هو بالتأكيد لم يكن يقصد، فقط، فك عُرى العلاقة السعودية الأمريكية، بل كان، وهو الماكر، يعرف أن المجتمع السعودي تربة خصبة لمنهجه، عندما تُرك، هذا المجتمع، وحده يجابه أعاصير التطرف والغزو الثقافي المقابل. وهنا واتته -

---

(1) أسامة بن لادن.

Twitter: @ketab_n

وآخرين - فرصةُ اقتناص ثمار دعاوي الجهاد والإرشادات الـخُلّب، لضرورة معرفة الهوية والأنا الـمُعذبة لدى قطاع كبير من شباب بلاد الشمس والتاريخ.. والزيت.

لم تكن مصادفة تلك الأعداد الغفيرة من السعوديين الذين انتشروا في أصقاع الأرض محاربين عدواً شيوعياً يوماً، وغربياً يوماً آخر، ولم يفاجأ المطلعون على خبايا مسارات الأحداث - وما أقلهم! - بتلك الكمية من التطرف والحقد على الغرباء، ومَن يحتضن الغرباء.. ويعيش مثل الغرباء!

كل الدلائل كانت تُشير إلى وقوع انفجار ما.. هنا.. هناك.. في الاثنين! كل المؤشرات كانت تصرخ: الاحتقان الداخلي المجنون قد يعبر عن نفسه: إما من خلال مذبحة في بلاد المشركين.. وإما مجزرة في بلاد الموحدين!

شيخ القاعدة الماكر كان يعرف، ومَن اعتنق رؤاه، أن المال المتدفق على البلاد مثله مثل الطفرات البيولوجية، يُحدِث، كما تُحدث، كوارث مجتمعية وطبيعية، خاصةً إن ترافق مع هذا المال صراع بين القديم والجديد، واغتناء غير مبرر يزيد المجاميع المهمشة العاطلة حنقاً على من يعتقدون أن تاريخهم ومصائرهم معلقة بهم.

غرائبية الأفكار والاتجاهات والأحكام تلك، دفعت على

Twitter: @ketab_n

السطح أزمنة دعاها العالم الغاضب بعصر الإرهاب السعودي ووصفها الداخل المشوش بأنها جهادٌ سعودي.. حتى وإن أنكر حيناً من الدهر جزءًا هاماً في الداخل كل تفاصيل رواية عُنف شباب بلاده، بل وتهكم عليها، حتى وهي تُثبت بالصوت والصورة والوقائع المحلية!

بلاد الشمس والتاريخ.. والزيت. كانت تحتضن أمراضها قبل 2001م، وظهرت علامات الأمراض، جليةً، بعد ذلك. عِللٌ زادتها بيئة متخلفة في التعليم ومخرجاته، وشفافية خجولٌ مستغربة، واعتقادات بأن خصوصيتنا عندما يتطرق الحديث عن الماضي والحاضر والمستقبل، هي فوق الدراسة والتنقيح والرغبة فيما لدى الجديد الآخر.

..إنني لأتساءل، والجليد يحتضن كل الأرجاء، وعيوني المليئة بالنعاس تراقب تراكمه على أسطح منازل مدينة الجبال السبعة: أين دور وسطية الدين في بلاد الشمس والتاريخ.. والزيت؟ أين دوره في صنع النفوس قبل صنع الطرق السريعة وناطحات السحاب؟ كيف بنى ديننا الرائع القويم، حضارات الرشيد، وابن سينا، وابن رشد، والفارابي؟ وكيف يُستغل الآن في هدم شواهد الحضارات من جهة، وفي إقناع الآخرين الحيارى بأن المياه الراكدة خيرٌ للمنتفعين منها، من الينبوع المتجدد الجاري.. من جهة أخرى؟

Twitter: @ketab_n

..وأحداث الحادي عشر من سبتمبر تُعرض على شاشات التليفزيون. كنتُ قد عشتُ خمسة وأربعين عاماً على بُقعة من أرض الله المليئة بالحروب والبغضاء والأحزان. كان قد مر عليَّ كذلك وقد طلبتُ إنهاء خدماتي من العمل الحكومي أربع سنوات خالها الكثيرون أنها القاضية على مَن كان ملء السمع والبصر الوظيفي، لكنني أخلفت توقعاتهم، كما أخلفت من قبل توقعات الكثيرين أن أستمر حياً وأنا صغير تتقاذفني العلل والأمراض.

بين مقاومات أمراض الطفولة القديمة، والخروج سريعاً من أزمة المشرقيين النفسية الدائمة بعد خروجهم من مراكز العمل الحكومي المهمة؛ مرّ شريط طويل من وقائع الحياة: بزوغ نجم أبٍ لا شبيه له، وموته مكروباً بعيداً عن موطن آبائه وأجداده وهو في أواسط الستينيات من عمره بشكل تراجيدي.. لا شبيه له. القصة تتكرر بشكل مُقزّم مختلف مع شقيق.. ثم زواجي الأول الذي انتهى بالانفصال وتوأمين.

...حكاية الإنسان مع القدر تتكرر:

زواج لاحق - أخاله ناجحاً - جاء بالبنين والبنات وبأيامٍ حلوة.. وأخرى مُرّة كما قصة الأزواج في هذا العالم؛ وبين تلك الفواصل من أيام العمر، كانت هناك ضحكات قليلة عندما كنت - وأنا المغرور بنفسي - أحمل شهادات النجاحات الدراسية والعلمية.. إلى أن وقفت ذات يوم وشهادة الدكتوراه في الفلسفة

Twitter: @ketab_n

الاجتماعية في يدي.. لا أدري ما أعمل بها!..طوق النجاة كان هناك: أستاذ متعاون في الجامعة الأولى ببلادي.

لا...! لم يكن أمامي طوق نجاة واحد في سنوات حياتي المضطربة الأخيرة، كان هناك آخر: إخراج ما في القلب - إن وافق عليه الرقيب الجاهل - من خلال ربع زاوية أسبوعية في صحيفة من صحف بلادي المتشابهة.. ثم سفينة النجاة الكبرى: رواية قيد الإعداد.. فيها ما فيها!!

فطن الدكتور مهند السعدي إلى أن الحوار داخل نفسه قد أصبح غير مترابط، وأن السياسة والاجتماع مع التاريخ العام والخاص، قد امتزجت بشكل غرائبيّ!

في لحظات الانتباه المتأخرة، وعند شعور الكائن المركب من أستاذ جامعي، ورجل أعمال موسمي.. وكاتب، بأن شعوره بالإرهاق والتوهان في الماضي والمستقبل وما بينهما، قد تجعله جميعها يُلغي تماماً سبب قدومه للعاصمة الأردنية لو قُدر له الاستسلام لإغراء العناق الغريب بين وهن الجسد وعافية الذاكرة.

عند تبلور حالة اليقين تلك قرر مهند، على الفور، أن يُسرع الـخُطى إلى حمام غرفته لإظهار نفسه بأحسن حُلتها وهو يقابل صديقه القديم في ردهة الفندق.

حمام دافئ سريع.. حلاقة ذقن لمرتين.. بدلة رسمية بربطة

Twitter: @ketab_n

عنق لافتة.. معطف على اليد.. وقطرات من عطر الكارون الباريسي الذي يفضله.. ثم حشر القدمين في الحذاء الأسود اللامع ذي الرباط.

في الساعة الثامنة والنصف كان مهند وتحسين يتعانقان أمام مطعم الفندق الموجود في البهو الرحب الخالي من النـزلاء، بسبب خوف السائحين من زيارة بلدان الشرق الأوسط، بعد أحداث 11 سبتمبر، وغزو أفغانستان، والحديث عن استهداف بلدان شرق أوسطية أخرى مدرجة في لائحة الشر الأمريكية.

إستغرق تناول السعودي والأردني واليوناني لإفطارهم العالمي مدة نصف ساعة تقريباً، تحدثوا فيها عن الطقس وأزمة المنطقة والتوقعات المستقبلية.. والنساء!

بعد فراغ الجميع من ابتلاع تلك الوجبة الثقيلة انتقلوا إلى أحد أركان مركز رجال الأعمال، حيث أشارت عينا تحسين إلى رغبته في الانفراد بمهند بمعزل عن اليوناني دولاتوس والشبيه بطرق تفكيره وأوصافه الشكلية والسلوكية ببطل المؤلف المبدع اليوناني نيكوس كازانتزاكيس في قصته الشهيرة زوربا.

فطن دولاتوس لحركة عينيْ تحسين وحتى قبل أن ينطق صديقه مهند بأعذاره المعروفة لديه، كلما أراد أن يبعد زميل الرحلات القديم عبر هذه الحجة المكشوفة أو تلك!

Twitter: @ketab_n

بدأ تحسين في الحديث، وقد أظهرته سنوات الانكسار المالي والسياسي الأخيرة إضافة إلى سُمنة طارئة مفرطة على أنه أكبر من سنه بكثير:

ـ مهند أنا أعرف أنك قد اجتزت امتحانات الحياة المختلفة والقاسية بأقل الأضرار، وأعرف كذلك أن أرباحاً قليلة قد دخلت جيبك، بعد الانتهاء من توريد شُحنات الأنابيب للهيئة العراقية للماء والمجاري؛ وأعرف أنك تحاول التغلب على مصاعب التوفيق بين مركزك الاجتماعي المرهق بمتطلباته، وبين دخلك الضعيف نسبياً وغير الثابت، لهذا طلبتُ منك هذا اللقاء العاجل، لأمر فيه فائدة مادية لا يمكن أن تخطر على بالي.. وبالك. لكن أرجو أن تصغي جيداً لما سأقوله شريطة إبعاد شرودك المعهود، وتبرمك من طول اللقاءات والاجتماعات.. هل لي أن أُجاب على طلبي؟!

هز مهند رأسه موافقاً، مع إشارة من يديه بضرورة الشروع فوراً وبدون مقدمات في شرح ما يعتقد تحسين أنه أمرٌ مهم.. وخطير.

ابتسم رجل الأعمال والسياسي الأردني السابق بعد أن وصلته رسالة صديقه الهوائية.. ثم قال:

ـ أنا أعرف مكاناً في غرب بلادكم فيه كنوز من السبائك الذهبية، والتي تقدر قيمتها الآن بمليارات الريالات، هل لديك الرغبة في اقتسامها مع أخيك الجالس أمامك؟ الأمر لن يكلفنا

Twitter: @ketab_n

سوى أجهزة كشف عن المعادن النفيسة وفي أعماق قريبة من الأرض.. وثلاث عربات شحن.. ومن ثلاثة إلى أربعة من أنصاف الخبراء، وعاملين، وكثيرٍ من الصبر والشجاعة والرغبة!

وبدون أن يترك تحسين مجالاً لـمهند لإعطاء جوابه راح يواصل حديثه الذي كأنه قد تلبسه فكرياً ونفسياً:

ـ هل تعرف ماذا كانت تعني سنة 1917م لمن عاش فيها من أهلنا الأقدمين؟

بينما كانت الخلافة الإسلامية العثمانية تتهاوى من الداخل، المتحكم فيه الاتحاديون والقوميون الأتراك، وبينما الحرب العالمية الأولى تلفظ أنفاسها، ويفرز المنتصر والمنكسر فيها، وبينما كان يعتقد أن العرب من خلال ثورتهم التي أعلنها ضد الأتراك في صيف عام 1916م قائدُهم الشريف حسين المنحاز للحلفاء، سيكونون من ضمن الرابحين في هذه الحرب الكونية، خاصةً أن الأتراك العثمانيين الذين كانوا يسيطرون على الحجاز والمناطق المقدسة يندحرون بشكلٍ لم يكن يتوقعه أحد. بينما كان يحدث كل هذا، صمم الحاكم العثماني للمدينة المنورة فخري باشا على أن يقاوم الهجوم المشترك من قِبل جند الثورة العربية، وجند الضابط البريطاني الشهير ت.ي.لورنس، حتى بعد هزيمة بلاده في كل

Twitter: @ketab_n

مكان، بل لم يفُتّ من عضده قرب انتهـاء هذه الحرب الكونية وإعلان الهدنة بين أطرافها.

قبل أن يستسلم هذا الخارق العثماني شديد البأس لمصيره المأساوي كانت قد وصلت للمدينة المحاصرة قبل عامٍ ونصف العام، آخر رحلات مُسافري القطار الحجازي، الذي صمم السلطان المعزول عبد الحميد منذ زمن طويل على جعله جُزءاً من تاريخه.

في آخر عربة أو عربتين استطاعتا النفاذ إلى المدينة المنورة بالرغم من الحصار المضروب عليها بالإضافة إلى عمليات تخريب قُضبان الخط الحديدي الـمُقترن بالهجمات العنيفة لعربان الثورة العربية، كان هناك الكثير من المسافرين.. ومنهم كبير مهندسي الخلافة العثمانية المدعو مختار بك ومعه عددٌ من الأعيان العثمانيين والقادة العسكريين، الذين أقسموا على أن يكونوا آخر رجالات عهد السلطنة الغابر، ممن يستسلم للقدر الذي أشار منذ زمن طويل، إلى أنهم مُحبون من طرف واحد - وبلا حيلة - لمن كانوا رموزاً دينية وسياسية للمسلمين في كل أصقاع الأرض. نفرٌ صمموا على محاربة طواحين الهواء بشكل مضحك، حتى وأسطر تاريخ سلاطينهم الأخيرة تُكتب حينها بشكل حزين.

..المهم هنا أنني لست في وارد البكاء على الخلافة العثمانية ولا في وارد التغني ببطولات رجال ذاك العصر المنتهي، أنا أريد

Twitter: @ketab_n

أن أقول: إن مختار بك وبالرغم من ميله الفطري لسلاطين بني عثمان - حتى آخرهم المدعو محمد رشاد يرتضي بكونه ألعوبة في يد الاتحاديين كما خليفته الآخر محمد السادس. على الرغم من هذا الميل العثماني لـمختار، اختاره - بالرغم من كل هذا - الحاكمون الجدد والفعليون في الأناضول، والكارهون لكل ميول مختار بك القديمة لأن يكون رجلهم المخلص، الذي يحمل سرهم الكبير إلى الـمُدافع البطل والشرس عن المدينة المنورة، ضد الحلفاء وأعوانهم من الأعراب وجنود الشريف حسين.

..مختار هذا عزيزي مهند كان يحمل وبشكل سري رسالة من قيادة بلاده إلى القائد العثماني في المدينة المنورة، وفي هذه الرسالة التي تنقسم إلى قسمين، توضيح لكمية الذهب العثماني الضخمة وكيفية توزيعها.. في قسمها الأول؛ وقسمٌ آخر يشرح طريقة إخفائه وأماكن دفنه لو قُدر لعربات القطار أن تتوقف لهذا السبب الحربي أو لأسباب فنية أخرى.. على أمل أن ينتصر فخري باشا ويعاود التنقيب عن الكنوز المخفية، ليتمكن بعد ذلك من إحياء النفوذ العثماني - أو التركي -..سيان!

..في الرسالة الخطيرة التي لا تُقدر بثمن، التي أنا مُهتم - كما أنت لا محالة - بشقها الثاني.. هي في حوزتي الآن، أو لنقل صورة نادرة منها. أنا أملك في هذه اللحظات أماكن إخفاء

Twitter: @ketab_n

السبائك الذهبية العثمانية وكيفية الوصول إليها.. وبشكل دقيق وعجيب!

..والآن ما رأيك في أن أُطلعك على ما لم يره من قبل إلا قليلون؟

..لم ينتظر تحسين موافقة صديقه أو رفضه، وبدلاً من انتظار ردة فعل المعني الثاني بالأمر، فردَ على طاولة المشروبات التي تفصل بين مقعدي الصديقين لفائف ورقية كانت مطوية بعناية: إنها مجموعة من الخطابات وليست رسالة من صفحة واحدة كما يتبادر إلى الذهن للوهلة الأولى، أما لغتها فكانت عثمانية قديمة، ومعها كذلك ترجمة باللغة العربية، يظهر أن تحسين قام بجهد كبير في إنجازها!

الرسالة المطولة - الـمُرفق معها الخرائط - تُعطي أوامر لفخري باشا بأن يبحث عن الذهب المخفي قصداً وبعناية، إن لم يصله المعدن الثمين مع الرسول السري مختار بك المستقل لإحدى عربات الخط العتيد. عليه أن يجدّ في البحث عن الكنز الثمين في منطقتين لا غير، واحدة واقعة بين وادي الأثل ودار الحاج، والثانية واقعة بين محطة إسطبل عنتر وأخرى تُدعى بواط!

بينما كان مهند يعيش صدمات الذهول المتتابعة بما وجده من

Twitter: @ketab_n

اعتقادات راسخة عند تحسين حول ما جاء في الرسالة وكامل القصة الأسطورية، راحَ رجل الأعمال الأردني الحالي والسياسي السابق، يواصل حديثه الشارح لمضامين الرسالة الأخرى:

ـ مقدار الأمتار التي دُست بعد قطعها كنوز الذهب المطمورة في رمال الصحراء، توضحه الخريطة الإضافية التالية: خمسون متراً شرقاً في الموقع الأول.. وعند الموقع الثاني عليك بالابتعاد تسعين متراً شمالاً غرباً و..

في تلك اللحظات، وبصورة مفاجئة، طلب مهند من صديقه الأردني أن يعفيه من مواصلة الحديث، بل وطلب منه أن يأذن له بالانصراف كلياً من القاعة التي جمعتهما، متذرعاً بشعوره بعارض صحي طارئ وغير مُريح في معدته.

رغم هذا التصرف فطن تحسين الفواز إلى أن الأمر برُمته وبرسائله العجيبة وقصته الأسطورية، عوضاً عن نية البحث عن الذهب والكنوز، أصبح مستقراً في زاوية داخل نفس صديقه السعودي القديم، حتى والرفض الأولي لحديث الكنز يظهر بكل معطياته.. وبشكل غير لائق!

في الغرفة رقم 311 التي اختارها مهند السعدي سكناً له لساعات قليلة في أحد فنادق العاصمة الأردنية، كان هناك رجل

Twitter: @ketab_n

محمل بالهموم يقف مرة أخرى أمام النافذة الكاشفة لمنظر ندف الثلج الـمُتصاغرة والمستمرة في السقوط منذ عاصفة الليلة السابقة.

لم تكن هذه المرة نفس الأفكار والرؤى التي داهمت صاحبنا السعودي في الليلة السابقة هي المتفردة بروحه وعقله وحدها؛ بل كانت هناك رغبة في اكتشاف مغامرة جديدة، جزءٌ كبير منها كانت تصنعه خرافة التاريخ. الكنـز التركي في تلك اللحظات - وبرغم النفي الخارجي المخادع - كان حاضراً بقوة.. وبكل وقائع قصته العجائبية في العمق الإدراكي لمهند السعدي!!

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

حكايات الحب.. والحرب

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الزمان: 5 كانون ثاني/يناير 1919م.

المكان: الطابق العلوي من مبنى مُلاصق للمسجد النبويّ الشريف من جهة باب المجيدي.

* * *

كأن عيون النساء لم تُخلق إلا لتبكي المفارقين.. قتلى كانوا أو مُرحّلين رغم أنوفهم.

كأنّ الرجال لم يُخلقوا إلا ليقتِلوا أو يُقتَلوا.. غازين كانوا أم مهاجَمين في عقر دارهم.

كأن الأطفال قد كُتب عليهم أن يعيشوا، دهرهم، في اليُتم والذعر والشتات.

وكأن التراب لا تتوقف دورته، لفظه والتهامه لبني الصلصال القديم.

..هكذا كانت البشرية مُنذ أول عذاباتها على الأرض، وإلى أن كَتبَ سفر الأسى القديم المتجدد - وأواخر عصر الدولة العثمانية يلفظ أنفاسه الأخيرة - حكايات المدينة المنورة مع افتراق

Twitter: @ketab_n

الأهل والأحبة، وفقد الناس لآمالهم التي عصفت بها عوادي الأيام.. وكأن لا قلوب خفقت من قبل بالحب والعاطفة.

..هي سيرة الإنسان مع الحرب والاقتتال في كل زمان ومكان.. حتى ومكان الأحداث قريب جداً، من مسجد وقبر نبي الإسلام العظيم. وقائع كثيرة من الأوجاع كان أحدُ ضحايا، وصُناع مأساتها، هو.. مختار بك العثماني!

صُبح يوم شتائي كئيب ذرفت فيه الغيوم الرمادية التي جللت سماء المدينة المنورة دموعاً لا مثيل لها في الغزارة، في الصباح الحزين ذاك الذي لن تنسى تفاصيله أبداً، النفوس المنكسرة لمن تبقى داخل الحامية العثمانية من العسكريين والمدنيين، دخل قادة ومسؤولون مختارون إلى حجرة نوم قائد القوات العثمانية في المدينة المنورة، والواقع في الطابق العلوي من الجهة الشمالية الغربية للمسجد النبوي.

كانت تلك النخب - عدا واحداً منهم - تحاول إقناع القائد فخري باشا الذي رفض على مدى سنتين تقريباً تسليم المدينة المنورة لـجُند الثورة العربية بقيادة الشريف عبد الله بن الحسين، أن يبادر، وعلى الفور، بالرضوخ للواقع الذي رفضه طويلاً وتجاهله بعناد من قبل، على الرغم من أن كل ممتلكات خلافته الشرقية والغربية تساقطت منذ زمن أمام زحف الحلفاء وصنائعهم المحليين المختلفين.

Twitter: @ketab_n

بفضل نور مفاجئ يتسلل مع الأشعة الخجلى لشمس ذاك اليوم، عُرف من الداخلين إلى حيث الإقامة المتواضعة للقائد العثماني الشجاع الصلب، كلٌ من: الأميرالاي نجيب بك والأميرالاي عبد الرحمن بك والأميرالاي ضياء الدين بك إضافةً إلى كبير المهندسين مختار بك. .الصديق الوفي للقائد.

أدى الضباط التحية العسكرية، ومحاجر عيونهم مليئة بالدمع، لمن قرروا تنحيته قبل مجيئهم، متعللين بأن قيادتهم في إستانبول أرادت ذلك تجنُباً لمزيدٍ من إراقة دماء المسلمين، وترجمةً للواقع البائس الذي آلت إليه الخلافة العثمانية.

مد الأميرالاي نجيب بك ورقة لقائده السابق، لكن فخري باشا رفض تسلُّم تلك الورقة التي سبق أن رآها ورفضها مرات عديدة. . وكأنها لا تعني له شيئاً، أو أنها جزءٌ من ألاعيب وخدع الأعداء. . إنه يعرفها تمام المعرفة: برقيةٌ يُدَّعى أنها مُذيلة بتوقيع الصدر الأعظم قبل شهرين من يومه المشؤوم هذا. . وتقول:

إلى الفريق فخر الدين باشا، قائد المدينة

إلى المير لواء محي الدين باشا، قائد عسير

بعد ما أبرزتموه من تضحيات تتحير فيها العقول، في سبيل الدين والشرف، لحقت الهزيمة بحلفنا، الأمر الذي حمل الدولة العثمانية على عقد الهدنة مع دول الحلفاء، وقد جاء في أحد بنود

Twitter: @ketab_n

الهدنة شرطٌ يقضي بأن تستسلم القوات العثمانية في الحجاز، وعسير، واليمن إلى أقرب قائد من قادة جيوش الحلفاء.

لقد بقيتم منذ سنوات تذودون عن شرفكم العسكري، وبالطبع فإنكم تدركون أن الرضا بذلك الحكم، إنما هو أمرٌ نابع من حب الوطن، والرغبة في إنقاذه من فناء محقق. لقد بذلتم من التضحيات، وأظهرتم من ضروب البسالة ما حاز على إعجاب خصومكم وأعدائكم. وأنا على يقين من أنكم سوف تتحملون هذا الحمل الثقيل بكل رباطة جأش وطاعة، وأرجو أن تكونوا واثقين من صدق نوايا إنجلترا التي لم تتقاعس عن إبراز حُسن النوايا بشأننا. وأتمنى من الله العلي القدير أن تعودوا في القريب العاجل سالمين، إلى أرض الوطن العزيز.

تحياتي لكم جميعاً

الصدر الأعظم وناظر الحربية

أحمد عزت

بدلاً من فرضيات التفكير مرةً أخرى بمحتوى البرقية، والصورة العامة لأوضاع المدينة المنورة التي أخذت تزداد قتامةً وتُعطي رجاحة إعادة تقويم ردات الفعل والحكم على الأشياء، بدلاً من هذا كله، رمق القائد الشهير رُسل الفجر، عدا واحد منهم، بتلك النظرة التي لطالما أشعرتهم بحقارة الاستسلام للعدو مهما كانت

Twitter: @ketab_n

طاغية قوته، ومهما نزعت النفوس البشرية لحب البقاء وعيش سنوات إضافية من العمر المجلل بالذُل والعار.. ثم أتبع تلك النظرة الشهيرة بكلمات بدت وكأنها لم تُغادر شفتيه أبداً:

ـ رفاقنا في السلاح.. إخواننا في الدين:

لنستح من البدو الذين يواجهوننا، انظروا إلى هؤلاء الرجال الذين نناوشهم القتال منذ عامين ونصف العام، إنهم لم يتخلوا عن جرحاهم، ولا حتى عن قتلاهم في أي وقت من الأوقات، حتى وهم يلوذون بالفرار.

أنسقط فريسة الهمّ والحزن؟ أنرحل؟ إلى أين نرحل ونترك مرضانا المساكين؟ لمن نتركهم أمانة؟ ألم نأت إلى هنا سوياً؟ أليس من الواجب أن نمضي كذلك معاً؟

لقد أكلنا لزمن طويل على مائدة واحدة، وحاربنا في خندق واحد، والآن كيف نتخلى عنهم، ونتركهم يصطلون بنار الحمى؟ إلى أين نهرب دون أن نُبرئ ذمتنا من الذين ماتوا محمومين مُشوهين؟ وحتى لو لم يكتب لنا الله أن نلتقي في الدنيا، ألن نلتقي معهم وجهاً لوجه في الآخرة؟

أيها الأصدقاء:

إن الانسحاب والأسر لن يحققا لنا شيئاً، وإذا ما انفرط عقدنا وتبدد شملنا، فسوف نصبح جميعاً أذلاء. لنتكاتف ونصمد، وها

Twitter: @ketab_n

هي حصصنا من المؤن قد زادت، والمخابرة تعمل باللاسلكي الآن.. لننتظر الرد! لقد حاربنا وصمدنا لبضع سنوات، لنصبر بضعة أيام إن الله مع الصابرين.

لم تُفاجئ تلك الكلمات القاطعة القادة العسكريين الثلاثة، لكنهم ظنوا أن جنون قائدهم السابق له نهاية، قد تعطيهم أملاً في تنحية نفسه دون الالتجاء إلى عزله ومن ثم إجباره على ذلك، وبطريقة مُذلة تأنفها التقاليد العسكرية العثمانية وبقايا عظيمة من الاحترام للرجل الاستثنائي الجالس القرفصاء أمامهم.

تقدم من الباشا أكبر القادة العسكريين سناً مقدار خطوتين.. ثم قال:

ـ معذرةً سيدي القائد، لقد تأخرت في القدوم إليكم من قبل، وأنا أعلم أنكم في حاجة إليّ، كنت سيدي مريضاً فلم أستطع المثول أمامكم خوفاً من انتقال عدوى المرض لجنابكم

وعلى الفور رد عليه الباشا:

ـ ما شاء الله يا نجيب بك لقد شفيت في الحين المناسب!

في تلك اللحظة لم يستطع الأميرالاي نجيب بك إخفاء مشاعره الداخلية المتضاربة.. قال:

ـ إن الجنود سيدي تترك الجبهة تباعاً، ولم يعد في الإمكان الصمود والدفاع.. ارحم الجند يا باشا..وارحمنا نحن أيضاً.

Twitter: @ketab_n

ذهول العالم كله ارتسم على قسمات وجه الباشا. . وهو يقول:

ـ إني أرى الأشراف متمردين، خرجوا على الخليفة ولا أستطيع أن أدخل معهم في المفاوضات!

أجابه نجيب بك نيابة عن العسكريين الآخرين الذين شرعوا في التغامز المشترك:

ـ تلطف بنا سيدنا القائد!

أشاح لحظتها القائد العنيد بوجهه إلى ناحية باب الغرفة وهو يقول:

ـ بإمكانكم الذهاب إليهم إذا أردتم. . أما أنا والمخلصون. . فكلا. . وألف كلا!

بعد تلك الجمل التي تصف بدقة خُلق الرجل وتاريخه العسكري والفكري، سُمع نشيج مكبوت يأتي من الناحية المظلمة التي جلس في أحد أركانها مختار بك.

أما القادة الثلاثة فقد قرروا - وهم يسمعون حكم رجل الساعة على نفسه وعلى من حوله ناساً كانوا أم أحداثاً - أن يشرعوا فيما ليس منه بُد في نظرهم:

تقدم الأميرالاي نجيب بك خطوة إضافية نحو قائده السابق إلى

Twitter: @ketab_n

حد أن لا مسافة تقريباً تفصل بين الاثنين، ثم جلس بنفس وضعية جلوس أمام من أثار داخل نفوسهم في السنوات الماضية الإعجاب إلى حد الإبهار بمواقفه، وبمن أثار كذلك لاحقاً الحنق في نفوسهم المتوترة.. ثم قال والعبرات تخالط كلماته:

ـ حسب أمر وزير الحربية، ونظراً لعدم مقدرتكم على الحكم، بشكل صحيح، على الموقف الحربي المحيط؛ فإنني وكبار الضباط من رفقاء سلاحك نبلغك، سيدي، بعزلك من القيادة، واعتبارك خارج الخدمة العسكرية، وأن لا أوامر ستُقبل منك منذ الآن فصاعداً.. سوى طلبك الرحيل من المدينة، ومدك بالمؤن الشخصية!

هل تكفي مصطلحات مثل الخذلان والغدر والإحباط، لوصف حالة القائد الذي لم يتخيل قط أن رفقاء الحرب، والمقاومة، والصمود، والأقسام المُغلظة أن لا استسلام للعدو.. يفعلون هذا؟!

ولأن هذا حدث بالفعل، ولم يعد للعواطف والتذكير بالمواقف السابقة مكانٌ في محيطٍ غلبت عليه الرغبة في النجاة بالنفس مهما كانت العواقب مؤلمة وجارحة؛ لأن هذا حدث، تساقطت دموع غزيرة حاول صاحبها ألا يراها أحد خلال سنوات الحصار القاسية.

..ثم سُمع صوته الممتزج بنبرات الحزن العميق المُهيب:

ـ استسلام.. تسليم.. عزل قائد بلا معركة.. بلا نصر..

Twitter: @ketab_n

بدون هزيمة ولا قتال أعداء؟! ما أضعف موقفكم أمام الله والتاريخ! افعلوا ما تشاؤون فلستُ صاحبكم في هذا كله.

قُضي الأمر. وأزاح القادة الثلاثة في نصف ساعة ما جثَمَ على صدورهم طويلاً دون أن يصرحوا به لهذا السبب.. أو ذاك؛ لهذا فالمكوث في حضرة من يرون في عينيه أقسى تأنيب لضميرهم العسكري والإنساني.. غير مناسب!

تراجع الضباط الثلاثة إلى الوراء محاولين ألا تلتقي أعينهم بعينيْ الباشا اللتين استمر دمعهما المُرمز.

..فجأة وقبل خروج آخر قائد منهم من الغرفة الشهيرة التي طالما ناقشوا فيها سير معركتهم المنتهية الآن، سُمع صوت فخري الدين باشا وهو يأمرهم لآخر مرة:

ـ قفوا! لقد نسيتم شيئاً مهماً:

ألن يسألكم أحدٌ كيف عزلتم قائدكم؟ ألن يكثر اللغط والقيل والقال في هذا؟ ألن تواجهوا تمرداً على تمردكم؟ إليكم حلولاً لهذه الأسئلة كلها.. هاكُم هذه الرسالة التي يمكنكم إشاعتها بين الجند والسكان، لعلي، وأنا أفعل ما لم أكن أود فعله طول عمري، أُكفر عن بعض ذنوبنا في حق من زججنا بهم في أتون المعارك ونحن نلهب أسماعهم وأرواحهم بمفردات البطولة والتضحية.. ثم نتركهم

Twitter: @ketab_n

مبعثرين في البرية بعد أن بحثنا عن ملجأ العار عند عدو خليفة رسول الله. . قبح الله وجوهنا!

كتب الباشا أسطراً قليلة في ورقة صغيرة، ثم قذف بها في الهواء وبدون أن ينظر في وجوه القادة الثلاثة المنتظرين انتهاءه مما أراد البوح به كتابياً.

تلقف الأميرالاي عبد الرحمن بك تلك الورقة التي كتبَ فيها قائده السابق مايلي: "بسبب أحوالي الصحية قمت بتعيين الأميرالاي نجيب بك قائد الفرقة الثامنة والخمسين، وغداً سوف أمضي إلى بئر درويش وأرجو المعذرة إن كان قد صدر مني خطأٌ في حق الجميع".

خرج القادة الثلاثة من الغرفة وهم يحملون ما تمنوا وغيرهم رؤيته منذ بدء حصار المدينة المنورة، واستبان للجميع، عدا قليلين، مصير المعركة الأخيرة في الحجاز بين قوات الثورة العربية المدعومة من الإنجليز وبين فلول مقاومة عثمانية يائسة؛ وبخلو الغرفة ذات الاستعمال المزدوج من النفوس الباحثة عن حلول، أياً كانت، للأوضاع المأساوية المحيطة بهم وبرمزهم الذي يدافعون عنه، تلاقت لثوانٍ قليلة أربع أعين لشخصين قاد كُلٌ منهما، حسب موقعه، ملحمة الدفاع عن المدينة المنورة، كان الاثنان يحملان هموماً مشتركة. . ومختلفة، لكنهما يتفقان على أن النهايات التي

Twitter: @ketab_n

يشهدانها الآن ستُغير من كل خططِ مستقبلهما.. إن كان هناك من مستقبل!

في الثواني الخاطفة تلك مر في خاطر أحدهما شريط طويل من الأحداث والوقائع الجسيمة، شريطٌ فيه تطلعات إنسانية، وفيه انكسارات، فيه ذكريات تعود للماضي، وفيه أحلام تحسب على القادم، فيه بقايا رباط علاقة قديمة، وفيه كذلك لوعات حُبٍ مازالت حرائقه في داخل النفس تضطرم، فيه مُتخيلات الانتصار، وفيه حقائق الهزيمة، فيه موت، وجوع ونتانة أجسادٍ ميتة مُتفسخة، فيه بطولة وغدر، وفيه.. سبائك ذهبية لا تقدر بثمن!

مختار بك تعود ذاكرته وهو يعيد شريط حياته المتأخر لذلك اليوم الذي راحت عيناه تبحثان عن الخطاب الذهبي المفقود، بعد أن وجد نفسه في أتون تلقي طلقات وقذائف عربان الثورة العربية الموجهة إلى عربات آخر قطار يحمل مسافرين من الشمال إلى الجنوب العثماني. ذاكرته تنشط وكأن الحدث قد وقع قبل قليل: كيف راح يأمر - والفوضى تدب في كل أرجاء عربات القطار - جنوده أن يبحثوا معه، بلا إبطاء، في أرجاء العربة التي يستقلُها، لعلهم يجدون، بعد أن هدأت غارة العربان وانسحبوا إلى حيث معسكراتهم الصحراوية، تلك الرسالة التي شدد القادة في إستانبول على رسولهم أن يحافظ عليها كما روحه وينقلها إلى من كانوا محاصرين في حاميتهم بالمدينة المنورة.

Twitter: @ketab_n

..لكن لا شيء فُقد إلا تلك الرسالة الذهبية، كل شيء موجود ومبعثر.. هناك: خطابات غرامية.. أدعية وأحجبة من الأهالي.. مأكولات.. عملات ذهبية قليلة.. أدوية.. كُتب عن التاريخ العثماني.. وأخرى عن أهداف وخطط جمعية الاتحاد!

"الرسالة التي كانت في حقيبة يدي.. أرجوكم!"

بتلك الكلمات المترددة وبصوت مُتهدج وبنبرة عالية التوتر راح مختار بك يناشد الجند الموكل إليهم حماية العربات من الداخل..وحتى الجنود الذين يرافقون عربات القطار قرب كل محطة من الخارج، سمعوا رجاء مختار بك ذاك.

بعد ساعة من الضيق والإحباط الشديدين تبين لـمختار بك أن الرسالة الذهبية لن ترجع أبداً إلى جيب حقيبته اليدوية.. لقد عرف السبب متأخراً:

لقد سُرقت الرسالة. إن الأسرار في إستانبول ليست أسراراً هذه الأيام، وفي الحروب هناك خلل ما، دائماً يأتي بنتائج النصر أو الهزيمة لهذا الفريق أو ذاك، ويأتي أيضاً بأثرياء الحروب.. سارقي ذهب الجنود والصمود!

لم تكن تلك المعطيات والظروف المحيطة بالعنف الدموي الإنساني لتغيب عن ذهن كبير المهندسين العثمانيين. فهو من أشرف على مد الخط الحديدي الحجازي منذ كان فكرة وحتى انتهائه؛

Twitter: @ketab_n

ويعرف كذلك الحالة السياسية والعسكرية التي تمر بها خلافته، لكن لم يكن أمام قادته، ولا أمامه، من خيار إلا أن يغامر بحمل تلك الرسالة البالغة الأهمية. فبدون ذلك ستزداد احتمالية وهن مقاومة الحامية التركية في المدينة المنورة، وسيصبح موقف فخر الدين باشا المعروف في الحجاز بفخري باشا..بالغ الحرج أمام ضباطه وجنده، وإن كان هناك شكٌ كبير في تغيير تصميم القائد العثماني على أن يقاوم زحف الثورة العربية.. جاء الذهب أو فُقد!

..هناك أمرٌ آخر أكثر إلحاحاً دفع مختار بك إلى تلك المغامرة الخطرة، في ظروف سياسية وحربية معقدة، أكثر حتى من شغفه بتاريخ سلاطينه ونزوعه المعروف إلى الوقوف أمام الأعاصير المختلفة التي كانت تهب في تلك الأزمنة على الآستانة ومناطق نفوذها المختلفة.. إنها ناجية وكفى!!

في أول خريف عام 1908م(1) وبعد أسبوع تقريباً من الاحتفال الضخم بوصول أولى قاطرات الخط الحجازي إلى المدينة المنورة حدث اللقاء العجائبي.. مع عيني ناجية الساحرتين.

هناك أمام باب السلام.. في سوق سويقة تصادف مرور موكب مختار بك الذي يعرفه أهل المدينة المنورة جيداً، منذ بدأ التخطيط

(1) الموافق شعبان 1326هـ.

Twitter: @ketab_n

الأولي لوصول الخط الحجازي لمدينتهم المشرّفة. ساعتئذٍ كان الأهالي لايزالون يعيشون حُمّى احتفالات وصول أول القطارات.. إلى حيث مرقد رسول آخر الديانات السماوية. ومن كان أولى - والناس تعيش أفراحها - أن توجه له التحيات وإشارات الامتنان سوى مختار بك، كبير المهندسين العثمانيين؟!

كان الرجل المشهور فرحاً جداً بمظاهر الاحتفاء والتقدير التي تحيط به، إلى أن شاعت في الناس ضوضاء تأتي من الناحية الشمالية للسوق.

إستفسر مختار بك ممن في معيّته ومن تُجار السوق عن أسباب الجلبة تلك، فكان الرد خليطاً من التبرم والابتسام!

..قالوا له: إنها ناجية وهم عندما ينطقون هذا الاسم فإنهم يعنون الفتنة والإعجاب.. ومجموعة تصرفات لا يمكن تقدير مداها!

ناجية عبد السلام مديني كما قيل لكبير المهندسين، امرأة لا مثيل لها في الجمال والحسن والجاذبية وقوة الشخصية، تزوجت مرتين، مات الزوج الأول، وطُلقت من الثاني الذي كان مشهوراً.. وهمسوا باسمه: حسن حسني باشا المحافظ القديم للمدينة المنورة.

ومنذ طلاقها الثاني سلبت تلك التي لم يتجاوز عمرها اثنين

Twitter: @ketab_n

وثلاثين عاماً ولم تُرزق بأطفال بعد تجربتي الزواج، لُبَّ كلّ من في المدينة المنورة.. قادةً كانوا أم رعية!!

كان الجميع مسحورين بكل ما تمثله من استثنائيات.. جميلة جداً. الكل يتفق على هذا، شخصيتها قوية ومهيمنة، بل ومُرعبة.. لا أحد يجادل في تلك الحقيقة. لعوب تهوى التغرير بالقلوب المليئة بالأمنيات والأحلام.. كان هذا هو الواقع الصحيح!

عندما سمع مختار بك بالضوضاء وعرف أن أحد أسبابها ناجية تلك، لامَ نفسه؛ لأنه، وهو صاحب الغراميات الكثيرة في البلدان التي كان يشرف فيها على أعمال خلافته الهندسية، لم يقابل تلك الشخصية المركبة من رقة وعنف من قبل، لكنه هوَّنَ من أمر إحساس الذنب ذاك، عندما ذكَّرَ نفسه بأن أسابيع مكوثه في المدينة المنورة كانت تعدّ على الأصابع.

ـ مَن طرفُ الجلبة الآخر غير ناجية؟

طرح مختار بك هذا السؤال على من كانوا حوله في السوق.. وجاءته الإجابة على الفور:

ـ إنها الداية[1] أسماء كما كُل مرة!

أضاف المحيطون بكبير المهندسين قائلين:

---

(1) الداية: القابلة.

Twitter: @ketab_n

ـ إن ناجية تفتعل المشاحنات عادةً، عندما تأتي للتسوّق وتتقابل مع الداية المسكينة أسماء التي طالما شُوهدت تذهب وتأتي من خلال سكك سويقة لبيوت الأهالي في المدينة المنورة، لمساعدة امرأة هذا أو ذاك على "الوضع"، وتلقى مجيديات[1] قليلة بعد الصرخات الأولى للمواليد الجدد، والتي ستتبعها صراخات كثيرة طوال أعمارهم!

ـ لماذا أسماء لها نصيب مع مناكفات ناجية دائماً؟

سؤال منطقي ألقاه كبير المهندسين لمن كانوا على استعداد للإجابة السريعة عنه:

ـ لأن ناجية لم تحمل من زوجيها السابقين، وأنها - وهي تملك المال والجاه بعد أن ورثت مالاً كثيراً من الأول وأخذت أغلب ما لدى الثاني - ظلت تحلم بالأطفال حتى تكتمل جوانب سعادتها، وكلما كانت ترى الداية أسماء تُداهمها مشاعر مؤلمة تنبش دونيتها الأنثوية وتُذكرها بقصورها الذي لا تتحمله ولا تفهمه!

استيقظ شيطان الفضول والغريزة في داخل مختار بك، وتملكته رغبة رؤية تلك الفاتنة الـمُتسلطة. فمن بين نسائه اللواتي عرفهن لم تكن ثمة واحدة منهن تحمل هاتين الصفتين قط. فاطمة خاتون زوجته الأولى مثال للجمال التركي البارد، محبة مُتفانية لزوجها

(1) عملة ذاك الزمان الذهبية نسبة للسلطان العثماني عبد المجيد.

Twitter: @ketab_n

وبيتها وأولادها. كان هذا يكفي في نظرها لأن تستحوذ على قلب مختار بك. طبعاً كانت تشاركه في آلامه عندما تمر العواصف السياسية على مراكز الحكم في إستانبول.. تبكي معه.. تزمجر.. تتعاطف مع الرموز والشخوص التي يحبها.. لكن لا شيء آخر.. إنها امرأة ثلجية لا تُشعره بأنه مُجيد في لعب دور المحب الولهان عندما يحل الشفق، كانت تُعامل مختار بك المحترم المهاب الجاد الذي لا يحب المزاح في النهار، كما تعامله عندما يجن الليل ويبحث الرجل عمن يطفئ ظمأ رجولته الغريزي!

في الصباح كما في المساء فاطمة خاتون هي فاطمة خاتون الـمُهندمة الصارمة البخيلة في العواطف، التي يريدها مختار بك.. من نوع آخر؛ قبلة وزهرة على ياقة معطفه اليمنى، وموجز عن صحة الأبناء وأحوال المنـزل، ثم تداول آخر أخبار أهل السياسة ومنجزات مختار بك.. ثم لا شيء.

السيدات اللواتي تزوجهن سراً أعطى، بعضهن، كبير المهندسين العثمانيين شيئاً مما كان يبحث عنه الرجل النهم للعواطف الأخرى التي لم يجدها عند فاطمة، لكنهن كُن عاديات في مستوى الجمال والجاذبية، وبعضهن الآخر كُن نُسخة أخرى من العثمانية التي اختار زوجها دمشق مقراً لسكناها بعد سنوات قليلة من ارتباط الوله الأول.

كان هناك شيء ينادي مختار بك لأن يقابل المرأة النموذج في

Twitter: @ketab_n

مخيلته.. شيء ما يدفعه لاختبار حدسه القديم القائل: بأنه يوماً ما سيقابل سيدة أحلامه.

تلاشت الضوضاء شيئاً فشيئاً؛ مما سمح للجمع الذي أحاط بمكان الـمُشادة النسائية المعروفة، أن يتفرق ويسمح للموكب المترجل لـمختار بك في التقدم إلى حيث كانت ناجية "تُفاصل" بائع قماش بلا كلل.

.. هناك تلاقت عينا مختار بك بهاتين العينين الشرقيتين المليئتين بأساطير الحب التي يرددها دائماً المشرقيون في أشعارهم وحكاياتهم المسائية.

"صدق الناس فيما قالوه عنها " هكذا حدث مختار بك نفسه.

حرصت ذات العينين الحوراوين الناطقتين سحراً ودلالاً، أن تتقابل عيناها بعيني من كانت تسمع عنه كلمات الإعجاب بجاذبيته الشخصية وألمعيته في كل أرجاء المدينة المنورة.

ولم تكتفِ عينا الرجل، الذي لم يمنعه تقدمه في السن من إدراجه في لائحة المغرمين الدائمين بالنساء، بتلك الأحاديث الخاصة التي تتخاطب عبرها نظرات الرجل والأنثى في كل الأزمنة، بل راح يتفحص جسدها المثير المحشور في عباءته التي بدت ضيقة على قوامٍ لطالما حلم مختار بك أن يكون له وحده.

Twitter: @ketab_n

ـ مختار بك أليس كذلك؟ تمنيت بأن أقابلك يوماً وأمنياتي لا تُخيب أبداً يا بك. .يقولون هذا عني هنا!

حلّقت حمامتان فوق الحرم ثم اتجهتا نحو السوق المجاور، في اللحظة التي هبت فيها ريح نديّة رطبة مع سكون كوني مُلاحظ، كانت تلك علامات على أن أمنيات ناجية قد تحققت أو في طريق التحقق، لا أن تقابل مختار بك فقط، بل أن ترتبط معه برباط الزوجية بعد أسبوع فقط من اصطدامها الأخير مع الداية.

زواج مختار بك بناجية كان حديث الأهالي في المدينة المنورة. راح الناس يتحدثون عن فارق العمر بين الاثنين. . والمقامات؛ بل راحوا يستغربون تنازل كبير المهندسين عن تعصبه لعرقه، الذي يحاول أن يخفيه، عندما قَبِلَ بالزواج من تلك العربية قمحية البشرة. القيل والقال لم يستنكف التعرض لناجية التي لطالما تسربت أخبار عن وعودها الكثيرة - وهي الفاتنة - لشباب المدينة وشيبها، وعود أحرقت قلوب الكثيرين المُمنين أنفسهم بارتباط - غير مُحدد - مع شاغلة الناس آنذاك.

. .مختار بك كان يسمع بهذه الأقاويل. . وأكثر، لكنه أغلق عينيه وقلبه عن كل ما قيل حينها عنه وعن زوجه، انشغل فقط - بعد استثناء واجباته الوظيفية - بغرامه وحلمه الأنثوي القديم!

ناجية أسطورة في امرأة، وحكايات عشق خرافي تجسد في

Twitter: @ketab_n

إنسان. يتحول مختار بك في الليالي المدينية، إلى وحش شبقي يُنسِّي كبير المهندسين العثمانيين رزانة نهارياته ومتاعبها. من داخل بيت الزوجية، راح الناس المارون والـمُسترقون السمع، يسمعون ضحكات مختار بك وقهقهته التي لم يتعودوها منه إطلاقاً، ويزيد عجبهم عندما تنطلق أصوات أوتار آلة العود الذي تُجيد ناجية العزف عليه، وزوجها كبير المقام يردد وراءها ما يستطيع لسانه الأعجمي حفظه ونُطقه من كلمات عربية مغناة، لها ارتباط بتلك المقامات الموسيقية.

غرق مختار بك في لجج الارتباط العاطفي بشريكته. تعاظم نهمه لجسد ناجية، مثلما وقرت في قلبه وروحه مشاعر نهرية مُتدفقة من الحب والوله الصادقين. لكن بين فينة وأخرى كان كبير المهندسين يطرح الأسئلة المتبوعة بأسئلة أكثر إيلاماً من الأولى: هل يحبني حقاً ذاك الإنسان المركب؟ هل تلك الإشارات العابرة إلى روعة الأيام الخوالي مع الزوجين السابقين تعني إثارة غيرته فحسب، أم أن ناجية لايزال في نفسها شيءٌ من الراحل والمفارق؟ أتلك الهمسات التي يسمعها - كلما عاد من سفرٍ له طويل، لتفقد منشآت هندسية في بلاد بني عثمان - حول تصرف زوجته وأحاديثها، مع شباب قيادة الحامية وأبناء الـنُخب في المدينة المنورة، أكُلُّ تلك الأقاويل والدعايات مجرد حقد على المرأة التي

Twitter: @ketab_n

حظيت بقلب رجل مهم مثله، أم أنها ضغائن الغير عليه؛ لأنه امتلك قلباً استعصى على الآخرين؟

كان البك المهندس لايزال يطرح أسئلته الـمُتداخلة ويسمع ما يتردد حوله من أحاديث التشتُّت النفسي المرهق لكل خلية في جسده، في ذات الوقت الذي يروح يغرق في عالم ناجية الفريد، مُتناسياً في لحظات جنون عشقه كُلَّ ما حوله.. إنساناً كان.. أو مفردة من مفردات هذا الكون الواسع؛ لا أسىً على الماضي في لياليه تلك، ولا أملَ في قادم.. كل شيء يتوحد عندما ينفرد بمحبوبته ليصبح وجه وعين وقوام الجمال البشري الغامض المثير.. كل شيء هو ناجية.. وكفى!

ناجية أدركت مفاتيح شخصية المأخوذ بسحرها؛ فأبقت شعلة حبه مُتقدة عبْر طريقتها التي تجيدها كلّ الإجادة:

إشعال الغيرة في قلب الرجل المهم.. من أشخاص الماضي، ودفعه للخوف عليها.. من أُناس الحاضر!

المستلبة لقلب كبير المهندسين كانت تؤرجح أيامه، بين رضا عليه مفتعل، وغضب لاحق مقصود، وبين عشق هذا وذاك، راحت أيام مختار بك توغل في هلام حب نادر غريب.

...وشهراً بعد شهر وسنة بعد سنة.. بدأ الذي تغلغل في أوردة وشرايين العثماني الكهل يداهم شيئاً فشيئاً فاتنة المدينة

Twitter: @ketab_n

المنورة، وتحولت أيام استدراج الـمُغرم صوب مصيدة حب نُصبت له وحده، إلى مصيدة تتسع لكِلا الزوجين. انتقلت حالة الاحتياج الجنوني - لذاك الرجل الولِه - إلى جعل الحياة الشخصية بعمومها تتقزم لتصبح فقط مسحة رضا تُبديها زوجته المغناج، وانتقلت تلك الحالة بعدواها المثيرة إلى المرأة نفسها التي لم يكن أحدٌ يصدق أنها يوماً ستصاب بمرض الحب وأعراضه.. من فقد ولوعة وتعلق؛ وقد تقوَّل قائلون عندما زعموا بأن قطار العمر وهو يمضي بـناجية لم يعد أمامه من محطة توقف إلا محطة ذاك العجوز الولهان. ومنهم من قال إن ناجية المغرمة بالقوة والهيلمان ومظاهر الثراء فكرت أن سقف أحلامها لن يصل بعد ذلك إلى أعلى من سقف مختار بك، وهُوَ من هُوَ في الشهرة وعلو الصيت والمكانة. وبعضهم أقسم أن عمل[1] كبير المهندسين العثمانيين كان أقوى، في الأخير، من عمل ساحرة المدينة المنورة.

تلاشت تلك الأقاويل، بعد ذلك، والزوجان يغرقان سوياً في منطقة رحيقية من الحب الذي تسري به حكايات الركبان عادةً، إلى حدٍ أن أياً منهما لم يكن يطيق فراق الآخر طويلاً.. خاصةً مختار بك المضطر لأن يجول في أرض الدولة العثمانية مُشرفاً على صرح هندسي له طابع عسكري هنا، أو مُرمماً منشأة هناك للسلطة التي بدأ يتجرّأ عليها الانفصاليون والقوميون المعارضون.

---

(1) العمل: يعني هنا السحر الأسود.

Twitter: @ketab_n

وبين تلك الأنشطة التي تسرق من كبير المهندسين زمناً كان يود أن يخصصه لعشقه المدني، وبين واجباته الأخرى الرعوية - الدمشقية - لما تبقى من طقوس قصة حب قديمة لها امتدادٌ، مروراً بكل تلك الأيام البطيئة المملة. .يعود مختار بك وهو أكثر عشقاً ورغبةً في ضم محبوبته ناجية إلى صدره، أما الصدر الآخر فلم يكن - آخر الأمر - أقل منه زفرات وتنهدات، تُشي كُلها بكثيرٍ من الحب للشريك الذائب ولهاً. . منذ زمن طويل!

. .ثم أتى التوأم عبد الحميد وفايزة بعد سنتين من لقاء سويقة الأول ليربط بين الزوجين بما هو أكثر من حب العاشقين. . بتلك الهالة من الأُلفة والمودة التي تصنعها مصائر البشر المشتركة، البشر الذين لا يتخيلون أنهم يصنفون أحياءً لو أنهم لم يقابلوا ذاك الأخير الذي يعني لهم الشراكة. . كما يعني الحب ذا الأوجه الكثيرة.

هل كانت حياة مختار بك في مدينة الرسول الأعظم - صلى الله عليه وسلم - كلها عشقاً، وغيرة، وغرائز ليلية ثائرة تُثمر البنين والبنات؟ أين كبير المهندسين من كل ما يدور حوله من أحداث عظام لها علاقة باستقرار دولته التي أفنى عمره في خدمتها؟

تلك الأسئلة تذكَّرها مختار بك وهو ينظر لثوانٍ خاطفة في عين فخر الدين باشا صبح يوم استسلام القائد الصلب غريب الأطوار. لقد طرحها الباشا يوماً على كبير المهندسين في أوائل السنوات

Twitter: @ketab_n

العشر الثانية من القرن العشرين، كان يريد منها الأول - حينها - استفزاز وطنية الثاني، وأراد منها كذلك اختبار قدرته - غير الحربية - على إعادة مختار بك إلى عقله الذي أكلته - كما يقولون - زوجته ناجية، وكأن أحداً لم يحب من قبله ولم يُنجب على كِبر.

البك، كان يَرُدُّ على تلك الأسئلة والمحاولات بابتسامة يغتصبها ثم يضعها على وجهه مع ترديد كلمات لا تعني شيئاً: حاضر أفندم. .مفهوم سيدي. . تمام يا باشا!

في داخله لم يكن مختار بك يفرّق بين ضروب الحب والتعلق: فالذي لا يهوى عائلته الصغيرة، لا يمكن أن نصدق بأنه ذو نزعة ميولية عاطفية لذاك المفهوم الـمُثير. . للأمة!

ليس بتلك الأفكار المجردة وما قبلها من ابتسامات صفراء، ولا عبر طرائق سلوكيات الموافقة، يحول كبير المهندسين رؤاه حول تداخل دوائر العام والخاص. . والأنا والآخر الذي يربطنا به المكان والتاريخ والمصائر. .لا! مختار كان يرد بعفوية الـمُحب عن أسئلة قائد مدينته ورجاءاته، عندما يُرى بعد ذلك بلحظات وهو يقف بين عماله ومهندسيه تحت سياط أشعة الشمس اللاهبة مُقيماً بناءً لمنشأةٍ، أو مُصلحاً قضبان خطه الحديدي. يشاهد المدنيون والجنود كبير المهندسين الكهل يومياً وهو يتنقل بين وسائط أعماله الهندسية غير مُبالٍ بالصعوبات من حوله، ولا حتى بتلك المسحة

Twitter: @ketab_n

من التشاؤم التي أخذ كل صاحب هوىً عثماني يرددها في تلك الأيام عندما يتعلق الأمر بمستقبل الخلافة والسلاطين، أو بروابط الأمم المنضوية تحت اسمٍ قديم لم يعد يعني شيئاً إلا لـمُقيمي سرادقات وفيات الدول من المؤرخين.

هذا الرد النوعي من المهندس الأكبر، كان يُرسل إشارات كثيفة من الراحة والاطمئنان للروح المكلومة لـفخري باشا. فكل من حول هذا القائد المولود في مدينة روسجوق شمال تركيا عام 1888م، والمتميز بعد ذلك في دراسته الحربية في إستانبول إلى حد وصوله لمرتبة رئيس أركان الجيش الرابع المشارك في حرب البلقان، والمرابط لاحقاً في الأراضي السورية المليئة - حينها - بالقلاقل والتململات على الدولة العثمانية، كل ما حول القائد الاستثنائي كان مدعاةً لإحباط أشد عزائم كبار الضباط وأشجعهم.. لولا أنه فخري باشا أكثر ضباط الجيش العثماني كفاءةً وجرأة.. ولولا أن الباشا وجد منذ تسلُّمه لقيادة حملة الحجاز في 17 تموز/ يوليو 1916م ومنصبه المتبوع الآخر كمحافظ للمدينة المنورة في 28 نيسان/أبريل عام 1917م، أن شخصيات قليلة مثل مختار بك لاتزال تعمل على منع انهيار سد المقاومة النفسية لبقايا الجيوش العثمانية، مثلما تعمل على بقاء المنشآت الهندسية وخطوط الاتصال عاملة قدر الاستطاعة، ولا يهم بعد ذلك إن كان كبير المهندسين مولعاً أكثر من المعتاد بزوجته ناجية التي لا يعرف ترتيبها في لوائح

Twitter: @ketab_n

زوجات العاشق الدائم مختار بك؛ فقط هناك خطوط حمراء ترسلها عيون الباشا القائد لكبير المهندسين كلما رجح كفة ميزان الحب المختاري على الشكل الثاني: الحب للعام وللدولة!

هذه العلاقة القوية من الصداقة التي تستخدم فيها لغة العيون، كما اللغة المعتادة بين الرجلين عندما يلوم أحدهما الآخر، أو يطلب منه النصيحة والمشورة، توطدت أواصِرُها منذ حل صيف عام 1916م المأزوم. .بالتحديد منذ أسندت القيادة الاتحادية في إستانبول قيادة حملة الحجاز للباشا عمر فخر الدين بن محمد عمر أغا المعروف محلياً بـفخري باشا. في تلك الأيام كان كل شيء في الدولة العثمانية - بما فيها جيوشها - يتداعى.

. . .حال وصول الباشا نائب قائد الجيش الرابع المرابط في الشام للمدينة المنورة، وعقده للاجتماع الأول مع بصري باشا محافظ المدينة المنورة آنذاك، تم استدعاء مختار بك لينظمَ للاجتماع ويعطي بالتالي، مُلخصاً عن آخر أخبار المتمردين من عربان الشريف حسين، والذين كانوا لا يترددون في إفشاء أسرار قائد ثورتهم المنتظرة، للمهندسين المتمركزين في المدينة المنورة لصيانة الخط الحجازي وخطوط الأعمدة الخشبية المقامة عليها وسائل الاتصال البرقي وما جاورها من محطات أخرى لاسلكية وتليفونية.

Twitter: @ketab_n

كان المتمردون يقصدون من وراء إفشاء أسرارهم للمهندسين - إلى جانب طبائع الصبر المفقود عندهم لحفظ الأسرار - إلى إدخال الرعب في قلوب أصحاب الخبرة ومن ثم تغلغل رغبة فرار - مفترضة - في أنفسهم أمام زحفٍ عربي غير مسبوق على حاميتهم!

القلة من المهندسين استجابوا لذاك الإغراء التحريضي.. أما الأكثرية فقد كانوا متمسكين بنـزعة مقاومة الحقائق التي بدأت تتبلور على أرض الواقع، والصارخة بأن الخلافة العثمانية أصبحت في ذمة التاريخ، وأن وريثها هو دولة ذات نزعة قومية تركية خالصة، حدد لها أقوياء العالم مساحتها وتوجهها السياسي والديني منذ ردح من الزمان. المهندسون الصامدون لم يكتفوا بذاك القدر من المقاومة، بل كانوا يزوّدون كبيرهم مختار بك بمعلومات غنية عن الثورة والثوار، معلومات دقيقة أدت إحداها إلى تمرير تقرير بالغ الأهمية عبر كبير المهندسين إلى المحافظ بصري باشا وقائد الحملة الجديد فخري باشا، والذي سيصبح بعد سنة تقريباً محافظاً للمدينة أيضاً. التقرير الـمُشار إليه أوقع أحد كبار دعاة قائد الثورة العربية الشريف حسين في قبضتي المحافظ والقائد، ومن خلال هذا العميل وعبر جهد منسق قام به مختار بك مع مهندسيه تم تجميع معلومات عن ترتيبات التمرد الافتراضي في المدينة المنورة، والذي

Twitter: @ketab_n

سيكون ركيزة - إلى جانب تمرد مكة المكرمة - لثورة تعم جزيرة العرب كلها ضد الترك وخلافتهم.

ولم تكن معرفة ترتيبات التمرد هي كل ما وصل لعلم القادة الأتراك في المدينة المنورة، بل أسماء الضالعين فيه كذلك، وموعد بدئه، وبأي شكل سيكون.

ومُذّاك الاجتماع الأول، تلاقت أشياء مشتركة بين فخري باشا ومختار بك: هناك الشعور القوي بينهما بأن الخلافة العثمانية ركيزة قوية لبقاء عالم إسلامي متوحد ولو بشكل اسمي؛ ولهذا فالدفاع عن السلطان في الآستانة وما يمثله من رمز ديني هو دفاع عن فكرة الوحدة الإسلامية. هناك أيضاً الإحساس الداخليّ الذي يجمع بين الرجلين نحو إصلاح دولتهما المتهاوية، فكلاهما لم يكونا مُتقبلين لتلك الوصاية المفروضة من قِبل جماعة الاتحاد والترقي المشكوك في توجهها الديني والسياسي، على الدُمى أشباه السلاطين في إستانبول، لكنهما أيضاً لم يكونا يعتقدان بأن طريقة إدارة الدولة في أواخر أيامها، هي ما تحتاجه أمة - من نوعية الدولة العثمانية - للدفاع عن فكرة التأسيس الأولي لها، ولا ببقائها في وسط عالم متغير لا مكان فيه للضعفاء المحبين للعُزلة والكارهين التجديد، بدءًا من إدارة حكومة تخضع لها قوميات ومذهبيات متعددة، وحتى الإيمان بضرورة سماع صوت آلات المطابع تعمل بكل طاقتها

Twitter: @ketab_n

المنتجة للإبداع والتنوير الذي قد لا يرضي الجميع. . لكنه - بالتأكيد - لصالح الجميع!

قاسم مشترك آخر بين الرجلين: هو ذاك الشيء الغامض الذي يداهم بعض الناس ذوي الإحساس المفرط، عندما يرون الأقل منهم يتبوأون مراكز قيادية ليسوا أكفاء لها، والأدهى أن هؤلاء الذين أتت بهم المصادفات، وطرق التقرب - عبر هذه الوسيلة أو تلك - لمن يصنعون أقدار الناس الوظيفية، لا يعرفون وهم يسوسون الناس بتفاهتهم، إنما يقربون دولتهم من أيام الفناء المحتّم، والاختفاء من على مسرح الأحداث الكونية.

أما الأقدر والأفضل من تلك المجاميع فهم يعيشون، في الظل، مع مسحة رضىً عن أنفسهم ماداموا يشعرون بأن واجباتهم التي أقسموا على إنجازها قد حققوا فيها نجاحات منقطعة النظير. . أكانوا ملء السمع والبصر. . أم أنهم إلى صفة الجنود المجهولين أقرب؟

. . .الباشا والبك كانت تتعاظم عندهما أحاسيس السخط على تقاعس من أعطتهم الحظوظ فرص قيادة الأمة ولا يقابلون هذه الهدايا الإلهية البشرية، إلا بمزيد من اغتنام فرص انهيار مجتمعاتهم لزيادة أرصدتهم المالية، لكنهما وهما يحملان في نفسيهما - كما آخرين معدودين - مرارة تفويض الأمر لغير أهله، وأفكاراً أخرى

Twitter: @ketab_n

بتولِّيه لمفاهيم الخلافة، والدولة، والأمم التي قد تشعر بمدى خسارتها، لو أن عقد التآلف الشكلي في طريقه الخطر للانفراط والذوبان، هذين الرجلين وهما يحملان تلك المشاعر ما كانا يسمحان لها - البتَّة - بمنعهما من الوقوف أمام زحف الحقائق وصيرورة التغيير التاريخية.

كان الرجلان حالمين، بل قادرين، حسب رأيهما، على أن يترجما هذه الأحلام إلى نقائض لكُل تشكُّلٍ لجديد يخالف رؤاهما. كان المسئولان اللذان يتفاوتان في سنوات عمريهما، ونوعية الخدمة الوظيفية، والمزاج الشخصي تجاه النساء، وتكوين العائلات، مُصرين على عمل شيء ما يقول للتاريخ السياسي والاجتماعي في أوقات أزمنة المحنة العثمانية: توقف! فهناك محاولات لإعادة كل مرحلة إلى المصب، حيث ينتظر الحالمون مُريدو الفكرة القديمة، التي بذل ملايين الناس على مدار حياة حكم بني عثمان أنفسهم لأجلها.. وحدها!

...بعد المقابلة الأولى بين قائد الحملة العثمانية في الحجاز وبين كبير المهندسين، خرج الاثنان بانطباع مشترك مُلخصه: أنَ صفات كثيرة تجمع بينهما، وأن مصيراً لا يعرفان ما هو سيوصلهما إلى نتيجة واحدة، وإن اختلفت تفاصيل ضرورية يرسمها تنوع الأقدار الشكلي على هذه الأرض.. ليس إلا!

في قرارة نفسه تأكد فخري باشا بأن من اقترب إلى قلبه وعقله

Twitter: @ketab_n

من أول لقاء رسمي مديني سيكون عوناً له وللدولة التي تعادل روحه، حتى وإن تجاوز نزق العشاق عند مختار حد المعقول. أما كبير المهندسين فكان مؤمناً مُذّاك اللقاء الذي لا تنساه ذاكرته، بأن فخري باشا هو آخر الرجال المحترمين القلائل في دولته، وأن العظمة هي جُزءٌ أصيل من شخصية الروسجوقي الذي لا يمكن أن يتكرر على مدى الجدول الزمني للدول إلا قليلا. آمنَ مختار بك كذلك بأن تجاوز مظاهر الصلف والعناد الظاهريين والمخادعين - أحياناً - في شخصية الباشا ضروريان، للنفاذ إلى أعماق تلك الشخصية الفذة.. العظيمة في جاذبيتها.

ألم يختلف الرجلان أبداً؟

بلى..! لكنه الاختلاف الذي ينشب عندما تتباين طرق تنفيذ الغايات والمقاصد، التي توحّد أمثال هذين الناظرين لبعضهما ساهمين، صُبحَ عزل آخر عظماء دولة كانت تُسمى.. بـالعثمانية.

مختار بك كان يحاول النفاذ إلى ما تحاول أن تخبئه عينا قائده فخري باشا الذي بدوره راحَ يُجري نفس المحاولة هو الآخر. مرت تلك الذكريات من البدايات الأولى للقائهما المشترك، وما سبق ذلك من عواصف الحب الملتهب بين كبير المهندسين الذي أشرف على بناء ومد الخط الحجازي حتى وصوله للمحطة الأخيرة في مدينة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبين زوجه، أما الأسئلة

Twitter: @ketab_n

والأجوبة حول الاتفاق والاختلاف بينهما وإن أجاب عنه الصوت الداخلي المكتوم لـمختار بك فلن يُفهم إلا ضمن سياقه العام والأشمل للأحداث والوقائع التي يغلب عليها الكرب والأسى، سياق تختزله - وأمثاله - أشرطة الدهور السريعة والعارضة لما سبق ومرَّ على من يدب على هذه الأرض.. من العقلاء!

العقلاء...!

يا لتلك الكلمة التي فقدت معناها! والحصار الـمُميت الذي بدا وكأن لا نهاية له، يُفشل يوماً بعد يوم محاولات الراغبين في الانضمام لذلك التصنيف، وهم يدافعون عن آخر مناطق النفوذ العثماني في المشرق الإسلامي:

...المدينة المنورة وغداة الإعلان عن الثورة العربية في أوائل صيف عام 1916م[1] كانت تلعب أدواراً مختلفة، وهو نفس حال قاطنيها من السكان والجند الموكلين مع قادتهم بالدفاع عنها، ضد عدوى قاتلة مفترسة راحت تأكل أعضاء الرجل المريض المسمى قديماً بـالدولة العثمانية.

قبل ذلك بسنتين أدخل الطورانيون في إستانبول والمتعصبون لقوميتهم التركية، بلادهم وما تبقى من مناطق نفوذها، في أتون حربٍ عالمية، اختاروا الوقوف مع الجانب الخاسر فيها، هناك

---

(1) شعبان 1334هـ.

Twitter: @ketab_n

سنحت الفرصة العلنية للحلفاء وبريطانيا وفرنسا ودول أوروبية أخرى، للانقضاض على آخر أعمدة البناء العثماني المتهاوي.

الحلفاء وهم يبلعون مناطق النفوذ العثماني في أوروبا، راحوا في الوقت نفسه يقرضون أطراف الرجل المريض الأخرى الممتدة عبر الولايات العربية، واختاروا لأجل هذه الغاية مناطق التأثير الديني وسلالة يرجع نسبها لآخر أنبياء الرسالات السماوية. اختاروا المكان والأشخاص كمنطلق دعائي يستغلون من خلالهم ثورة عربية تدّعي أنها ضد نزعة التتريك الطورانية، وأنها تثأر من الـجُهلاء الجاثمين طويلاً على صدر العرب، والذين ترددت الشائعات والأقاويل عن ارتكابهم مذابح ضد المنادين بالهوية العربية، مقابل التعصب الظاهر للعرق التركي في عاصمة الخلافة الإسلامية المحتضرة.

إختار الحلفاء بعناية، الحجاز كمكانٍ لأولى رصاصات الثورة العربية، لما يرمز له المحيط المكاني من رموز ومعانٍ دينية لا تخفى على أحد، واختاروا الشريف حسين الذي سبق أن عينته الدولة العثمانية أميراً مسانداً على الحجاز إلى جانب الحاكم التركي؛ لأن الدوحة الشريفة التي ينتسب إليها حسين بن علي ستُعطي للثورة بُعداً دينياً إلى جانب البعد السياسي الذي كان هو المطلب الأول والأخير لسادة العالم آنذاك.

ما كان مطلوباً من قائد الثورة العربية هو فقط تحويل حلم

Twitter: @ketab_n

اعتلائه عرش مملكة عربية تضم الحجاز والشام والعراق وأجزاء أخرى من الجزيرة العربية، إلى حركة مسلحة ضد الوجود التركي في الولايات العثمانية في الحجاز، بقصد إنهاء وجود أبناء الأناضول نهائياً في الحجاز ومن ثم في بقية العالم العربي، أما بعد ذلك فليترُك الشريف حسين الأمر للخرائط المعدة سلفاً، وللمدافع والبنادق.. ودهب الضابط الإنجليزي الداهية لورنس.

...مرةً أخرى راح رجلان صنعا تاريخاً نادراً لم يدونه قلم..ولا نقشه مؤرخ، ينظران إلى بعضهما في ذهول.

بين صيف 1916م وأوائل عام 1919م وُجدت على أديم واحد مقاومة وخُذلان.. انتصارات قليلة وهزائم كثيرة.. ابتسامات نادرة ودموعٌ لا تنقطع، جوع، قتلى، تهجير.. وفراق:

بعد القبض على أحد عملاء الثورة العربية في المدينة المنورة، طلب فخري باشا من جمال باشا قائد القوات العثمانية في الشام أن يسمح له بالقبض على عليّ وفيصل ابني الشريف حسين.. القائد المنتظر للثوار العرب، وكان الأولان قد جندا خمسمائة متطوع من عرب مكة المكرمة، ليذهبوا إلى المدينة المنورة، بحجة أن هؤلاء المجندين في طريقهم للهجوم على القوات البريطانية الموجودة في قناة السويس، لكنَّ الغرض الأساسي من قدومهم كان الاستيلاء على المدينة المنورة بعد إطلاق إشارة الثورة من مكة المكرمة، ووصول تلك الإشارة إلى حيث معسكر المتمردين المقام

Twitter: @ketab_n

على مسافة ساعة من المسجد النبوي الشريف، وبالتحديد عند مسجد حمزة في سفح جبل أُحُد. ولأن الرد من الشام تأخَّر كثيراً على المنتظرين لأوامر مندوبي الرجل المريض، أعلن التمرد في المدينة المنورة، حيث احتل الثوار أولاً تبة العاصي وما حول بئر العوالي، وبعد ذلك جبل جهنم القريب من المدينة من الجهة الجنوبية الغربية.

الطلقة الأولى - ويا للغرابة!! - كانت قد وُجهت صوب أحبّ أعمال مختار بك إلى نفسه.. للقطار المغادر من المدينة المنورة والمتجه نحو الشمال مُقلاً المحافظ. ولم يكتفِ الثوار بهذا - كما هو متوقع - بل عمدوا إلى تقطيع أسلاك التلغراف، وتحطيم قضبان السكة الحديد، ولم تُجْدِ نفعاً قواتُ اللواء المئة والثلاثين وحملةُ البنادق الآلية التركية المندفعون لمساندة قوات حامية المدينة، في منع استمرار عمليات القنص والتخريب، وهو أمرٌ أدى إلى انقلاب قاطرة من قاطرات خط سكة حديد الحجاز، والشروع بالتالي في عمليات تخريب كانت أعظم أثراً في تمزيق ما بقي من كيان أمة في وقت لاحق.

إن مثل تلك الحوادث وتعاظم حركة تمرد الثوار، دفعت القيادة العثمانية في الشام إلى توحيد قواتها القادمة لنجدة المدينة المنورة، مع القوات الموجودة قبلاً في تلك الأنحاء وتنظيمها بعد تعيين فخر الدين باشا قائداً لتلك القوات، على أن يحمل اسم قائد

Twitter: @ketab_n

قوة حملة الحجاز مع تكليفه بإدارة المحافظة وقمع حركة التمرد بكل قوة وعنفوان مهما كانت النتائج.

أول رد فعل عسكري منظم قام به فخري باشا على حركة التمرد، كان في منتصف حزيران/يونيو عام 1916م، وكان الهدف منه القضاء على تجمع كبير للثوار، في العلاوة حيث قيادة عليّ وفيصل ابني الشريف حسين. وقبل التحرك العثماني الفعلي خطب الباشا في جنده قائلاً:

"في الوقت الذي تقاتلون فيه باسم الإسلام وباسم الدولة العثمانية وتجودون بأرواحكم ودمائكم في أرضروم والعراق، تحرك المتمردون، وقد استُميلوا بمال أعدائنا، واجتمعوا في نواحي المدينة المنورة، وفوق خط السكة الحديدي، وأقدموا على تخريبها، وقطعوا أسلاك التلغراف، وأطلقوا نيرانهم على أبواب البلدة الطاهرة، وأصابوا حُراس الطرق.

...لقد تلقى المتمردون السلاح من الإنجليز، وهم ينتظرون المدافع أيضاً، وبناءً عليه فإنه بعون الله تعالى، أصدرتُ أمراً بالهجوم على المتمردين".

أولى المعارك الفعلية بين قوات فخري باشا والثوار كانت في 24 حزيران/يونيو عام 1916م، وبالتحديد في منطقة العوالي، وصبح اليوم التالي للمعركة تبين مقتل وجرح أعداد كبيرة من

Twitter: @ketab_n

المتمردين، مع فرار أعدادٍ أخرى لا تقل عدداً، إلى مكان تجمع جديد.

بعد ذلك بأقل من شهرين، حدثت معارك متفرقة في شعب رابغ وبحيرة معجز وشعب الأعصار على مسافة خمس ساعات من جنوب بئر الماشي، الذي سبق أن كان مركز قيادة زعيم الثوار في تلك الأنحاء الشريف علي بن حسين. الغلبة في تلك المواجهات كانت للقوات العثمانية الأكثر استعداداً وتدريباً وتجهيزاً، وبدا أن الثوار يفرون إلى كل اتجاه، وفي أعقابهم راحت القوات العثمانية النظامية تطاردهم وهم في كل مكان في ذاك القيظ الحار جداً الـمُرسِل جحيماً من رياح السموم المحرقة.

وفي تلك الأثناء رغب الباشا فخري في أن يُنشّط ركيزة دعائية لدولته، مقابل الإشاعات والأقاويل التي راح عملاء الأشراف يبثونها، والمدعية أن الأتراك ليسوا مسلمين حقيقيين، وأن من بينهم مساعدين ألمان نصارى يُجاورون المسجد النبوي الشريف. ولهذا السبب أسس القائد العثماني صحيفة باللغة العربية وأطلق عليها الحجاز. إلا أن هذا المجهود الدعائي ما لبث أن خبا بسبب ضعف الانتشار والإعداد المهني، وزاد من صعوبة الأمر برمته، تأثر قيادات عثمانية لها أصول عربية برايات دعاية الثورة العربية الناشئة؛ وكانت خطوة العزل السلطاني الرسمي للشريف حسين متأخرة جداً وغير ذات فائدة على الإطلاق، خاصةً أنها أُتبعت بتعيين شريف

Twitter: @ketab_n

آخر اسمه حيدر لم يعرف لا مَن عينهُ لماذا اختاروه بالذات، بدلاً من كبير الأشراف الآخر حسين!!

. . .في شُباط/فبراير وآذار/مارس(1) من العام الذي أعقب نشوب أولى المعارك، حدث تطور نوعي في المعارك وما ترمز له؛ التواريخ المشار إليها شهدت سماءات أيامها تحليق طائرات إنجليزية لفترة ليست بالقليلة، متبوعاً بقصفٍ مُركَّز من تلك الطائرات طال أجهزة الإرسال بمختلف أنواعها. وبعد ساعات عادت الطائرات إلى التحليق فوق المناطق الـمُستهدفة السابقة، بعد مرورها فوق المسجد النبوي الشريف كتحدٍ يحمل معاني كثيرة!!

تكاثرت في ربيع 1917م، أعداد القوات العثمانية التي تحرس قوافل المؤن والرحلات العسكرية القليلة بواسطة السكة الحديد، وذلك امتداداً من معان إلى المدينة المنورة. لكن تلك القوات كانت أيضاً معرضة دائماً للقتل والإغارة ونقص المؤن في وسط أجواء مناخية قاسية، ومعمعة سياسية لا مثيل لها من قبل.

وفي وقتٍ من أوقات المحنة تلك فكرت القيادة العسكرية المركزية العثمانية في أن تُخلى المدينة المنورة من أي وجود عسكري عثماني، لصعوبة الموقف وتأزم الجبهات الأخرى المحتاجة للمعونة العسكرية من قِبل القوات المتمركزة حول المدينة

(1) 1917م.

Twitter: @ketab_n

المنورة؛ لكن هذا الاتجاه التقهقري العسكري لم يستطع الطفو على مسرح الأحداث؛ لأن القائد العنيد في المدينة المنورة فخري باشا رفض مجرد التفكير فيه من الأساس، وبدلاً من هذا أذاع الباشا بياناً لعلم الجميع قال فيه وكأنه يقود حملة نفسية إلى جانب جهوده العسكرية المعروفة:

"تطبيقاً للشريعة الإسلامية، عرضتُ على الأشراف أبناء حسين. .زيد، وفيصل، وعبد الله أن يُلقوا السلاح ويتوبوا من الحركة الجنائية التي أقدموا عليها. لكنني - وبدلاً من ذلك - لم أتلقَّ منهم إلا طلقات المدافع، وقطع سكة حديد المدينة، ومنع العرب من إدخال المؤن إلى المدينة، بهدف الاستيلاء على المدينة المنورة طوعاً أو أن إجبارها على الاستسلام كُرهاً نتيجةً للمجاعة. لكن "أيها الناس" اعلموا أن جنودي البواسل مكلفون بالدفاع عن المدينة المنورة - وهي بؤبؤ عين الخلافة - بكل تأكيد معنوي، وحتى آخر قطرة دم وآخر جندي، وآخر رصاصة، ولن يُنكس علم العثمانيين الأشم الأحمر أبداً من على القبة الخضراء ومنارة المسجد النبوي الشريف.

إن هؤلاء المتمردين قد تورطوا في هذه الحرب العالمية، تملقاً للإنجليز، ومثلما حلقت طائرة هؤلاء المتمردين تحمل العلم الإنجليزي ذات مرة فوق المسجد النبوي الشريف، فإن هؤلاء المتمردين لن يتورعوا عن نقب أسوار المدينة يوماً ما، وإطلاق

Twitter: @ketab_n

مدافعهم تجاه قبر المصطفى – عليه أفضل الصلاة والتسليم - ومن المحتمل أن يقطعوا مواصلاتنا من النواصي والأطراف، لتعجيزنا والتضييق علينا في العيش، ومن ثم للحيلولة بين المتمردين وتحقيق أهدافهم، والدفاع عن المدينة بعون الله، اضطررتُ - مع الأسف - لأن أُقدم الاقتراح التالي:

إن الذين يعملون معنا ويشاركوننا مصيرنا برضائهم يستطيعون البقاء في المدينة، شريطة ألا يطالبونني بالمؤن مدة عام! وغير هؤلاء ينبغي أن يرحلوا عن المدينة إلى حيث شاؤوا، في موعدٍ غايته آخر الربيع، حتى لا يتعرضوا لعواقب ملحمة كبرى محتملة الوقوع بسبب الحرب.. أو القحط على السواء".

توقيع

قائد قوة الحملة الحجازية

فخرالدين

20/ 3/ 1335هـ الموافق 12/ 4/ 1917م

إحتمالية وقوع الملحمة لم يعد لها معنى، لأن المعركة كانت أصلاً قد بدأت منذ فترة سابقة، ليس مع عدو اختار الطرف المنتصر في حربٍ عالمية كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة.. فحسب، بل مع ذاك المجهول الذي يُطلق عليه الناس نعوتاً مختلفة.. مع

Twitter: @ketab_n

القدر.. مع الحظ.. مع الانتصارات والضحكات التي تختار طرفاً بشرياً، والأحزان والأسى التي كأنها خُلقت فقط لتُعاشر أطرافاً أخرى مقابلة.

قبل ذلك البيان بأسابيع قليلة كان مختار بك يقرأ خطاب زوجته فاطمة خاتون الأخير له، في إحدى آخر رحلات المسافرين على خط سكة حديد الحجاز، قبل أن يفقده مؤقتاً، مع خطاب ذهبي آخر لم يُعثر عليه حتى الآن!

أما بعد البيان الشهير بساعات فلم يكن هناك إلا مشاهد الإعداد الأولي من هجرات العائلات من المدينة المنورة، مُستقلين القطار الحامل عائلات بكل أجيالها إلى مناطق النفوذ العثماني في الشام، والتي كانت تتهاوى هي الأخرى تحت مطارق هجوم الحلفاء.

أعدادٌ أخرى من الأسر المدينية فضّلت الهجرة إلى مكة المكرمة، حتى وهم يسمعون تأكيد أعوان الأشراف المنتشرين بينهم، بأن قوات الثورة العربية ستسمح برحلات قطار الحجاز فقط لاتجاه واحد.. إلى الشمال، وأن هذا العطف سيكون مؤقتاً نظراً لاعتبار السكان - المُصرّين على البقاء بجانب القوات العثمانية - شريكاً في إثم الدفاع، ولو بشكل سلبي، عن حامية ستستسلم، طال الوقت أو قصر!

Twitter: @ketab_n

فخري باشا وأعوانه كانوا من جهتهم يرون في إفراغ المدينة المنورة من سكانها المدنيين - وخاصةً من كانوا لايزالون يدينون بالولاء لخليط الحكم الإسلامي العلماني في إستانبول - فرصة كبيرة لجعل المدينة المنورة منطقة خالصة تتفرغ للقتال، دون الاكتراث بإعاشة السكان المدنيين وحمايتهم.

. . . بالفعل تزايدت رحلات القطار من المدينة المنورة إلى الشام وهي تحمل انكسارات أرواح الأهالي المحليين الذين تركوا الجوار الذي أحبوه كما أنفسهم. . وتركوا ذكريات الأمس بكل ما فيها.

وفي بداية عمليات التهجير الواسعة النطاق والتي قست على قلوب الكثيرين وأبانت بكل جلاء شنائع الحروب والاقتتال بين أبناء الدين الواحد، ٱستقبِلَ المهاجرون في بلدان الأقليم الشامي وفي تركيا، بكل حفاوة وترحاب؛ لكن رحم الحروب يقذف عادةً مواليد من خلائق البشر التي فيها من أعاجيب البشاعة الكثير؛ ولأن الأمر هكذا فقد وجدت الموجات المتأخرة من المغادرين قسراً إلى بلاد المهجر الغريبة عنهم، الجفوة والصدود وعناء مُعايشة المنافي والشتات، بعد أن عايشت في داخل رحلات القطار المحفوفة بالمخاطر مشاهدات حشر الأجساد إلى حد الموت خنقاً، وإلى جانبهم تراصت أكفان ممزقة، لمواليد خُدج لفظوا أنفاسهم الأخيرة. . حتى قبل سماع أمهاتهم البائسات صرخاتهم الأولى.

Twitter: @ketab_n

أُطلق على حملة التهجير المنظمة التي بدأت فعلياً منذ أوائل عام 1917م[1] اسم تُركي عرف بعد ذلك بـ سفر برلك، وكانت محصلتها النهائية خلو المدينة تقريباً من سكانها المدنيين، وإغلاق منازل عائلات عديدة لم تعُد أبداً للمدينة المنورة، رغم أنهم أخفوا الكثير من وثائق ملكياتهم وكميات أخرى من الذهب والمصوغات والعملات المختلفة تحت وبين أرضيات وشقوق جدران منازلهم، التي أمّلوا أن يعودوا إليها يوماً ما.

ولم يكفِ سكان المدينة من مدنيين وعسكريين بلوى مغادرة الأحبة والأهل، إلى حيث مواطن التغريب والشتات، والتي ستفصل - إلى الأبد - بين من يرجون عودة التلاقي، لم تكفِ تلك المحن وحصار مُحكم آخر راح يشتد بضراوة جوعه على العسكريين الكثر والمدنيين القلائل على حد سواء، بل استفحلت أمراض فتاكة أخرى راحت تزهق الأرواح المكروبة: انتشرت الأنفلونزا الأسبانية والحمى، والكوليرا، ومرض الإسقربوط المفلج المزمن. وفي أجواء الرعب تلك انتشرت الإشاعات الكثيرة التي راح البعض يُؤكدها ومنها رؤيتهم لرجل حبشي كان يسكن مع جماعة في أطراف المدينة، قُبض عليه مساءً من قِبل الشرطة بعد أن عُلمَ أنه نبشَ قبور الأموات وأخرج جثة امرأة دفنت صباحاً، ليقوم بعد ذلك بتقطيع أطرافها، ويضعها في أكياس، أفرغ ما فيها لاحقاً في قدور

(1) أواخر عام 1334هـ.

Twitter: @ketab_n

طُبخَ اللحمُ الإنساني فيها، ليباعَ بعد نُضجه في سوق الأكلات الشعبية الجاهزة للجياع!!

القطط والكلاب في كل شوارع المدينة اختفى مواؤها ونباحها، ولم يكن لهذا معنى سوى أنها تحولت هي الأخرى إلى وجبات لمن كانوا لا يجدون غير لحمها مأكلاً.. وما أكثرهم حينها!

وفي خضمّ كآبة انتظار الأسوأ، وفد إلى المدينة المنورة آخر من استطاع التسلل من القوات المساندة لها من الفرقة السابعة عشرة، والمنوط بها أصلاً حماية ما تبقى من قضبان خط سكة حديد الحجاز. كانت تلك الفرقة هي المحظوظة - أو المنكوبة - التي شاهد سكان المدينة المنورة دخولها، كآخر قوة تعزيزية تهب لنجدة حامية المدينة، أكان ذلك على شكل جندٍ أو مؤن؛ لأن قوات الثورة العربية بقيادة فيصل بن الحسين استولت تقريباً على كل مناطق التحكم السابقة التي كانت التعزيزات العسكرية وحملات الإعاشة المتحايلة على الحصار المضروب على المدينة تنفذ منها مُتسللة. لقد تحوّلت قوات الثورة المنتشرة حول جيش فخري باشا من مجرد فرق شبه نظامية تهاجم من حينٍ إلى آخر القوات العثمانية، إلى تجمعات عسكرية تراقب وتُفتش وتُهاجم - دائماً - الداخلين والخارجين من المدينة المحاصرة، خاصةً أن ميزة استيلاء قوات الشريف فيصل على ينبع البحر والنخل قد أعطت تلك

Twitter: @ketab_n

القوات دفعة سوقية ومعنوية لإحكام الحصار المضروب على حامية المدينة المنورة.

...تساقطت القذائف على حواري المدينة المنورة وسِككها، وانكمش المدافعون إلى الداخل، يأكلون - بعد إغلاق طريق الحجاز الشام - ما تبقى من حصص غذائية، كان يؤمل منها أن تكفي حسب مقادير توزيعها السابق، العسكريين والمدنيين الذين فضلوا الصمود داخل مدينتهم التي أحبوها. أما ما كان يُطلق عليها بالمستشفيات، فقد انعدمت إمكاناتها الدوائية وأدواتها الضرورية لمعالجة المصابين من الحروب، ولم يكن غريباً رؤية عشرات الجرحى وهم يتقاسمون ممرات المصحات، بعد أن عجزت السُرر من تناوب المُثخنين افتراشها.

...يوماً بعد يوم والحصار الثقيل وانعدام الأمل يُلقيان بظلالهما الثقيلة على من في داخل الحامية. أخذت معنويات أطياف البشر داخل المدينة البائسة تتناقص بشكل سريع، بعد أن خارت قواهم وأرهقتهم اشتباكاتهم اليومية داخل أنفسهم - قبل عدوهم - بين قيم الصمود وعبثية المقاومة، خاصةً أن مراكز الدولة التي يدافعون عنها وأطرافها تُشهر استسلامها أمام قوى أمم كانت تصنع تاريخ القرن العشرين، المليء بالمطامع والدماء وبشاعة القهر، وكأن القرون السابقة لم تكن كافية لكل أنهار دموع وفواجع التاريخ المتدفقة!

Twitter: @ketab_n

ولأن قطرات المياه هي المكونة لأنهار الطبيعة وأوديتها، فإن أحزان البشر - هُنا وهناك - والتي تقضم أشجار أعمارهم، هي أنهار المعاناة الإنسانية الطويلة والواسعة.

مختار بك وهو يساعد قائده في إرسال برقيات الاستغاثة إلى دمشق وإستانبول المشغولتين بهمومهما الكثيرة الأخرى، كان لهُ مكانٌ في قطار الأحزان، الذي بدا وكأنه يدور في محور المدينة المحاصرة، مُلتقطاً المنتظرين الكُثر لدفعهم إلى داخل عربة لا يُسمع فيها إلا النشيج والتأوهات. كبير المهندسين الذي راح يوزع وقته بين إصلاح منشأة برقية هنا، وترميم عربة قطار هناك، كان يؤمّل منها أن تحمل البشر إلى الشمال لتعود بالمؤن إلى الجنوب، لم يكن وقتها إلا مُمَثلاً للمأساة بعينها: ففي كل صباح تروح مبادئه تدفعه للوقوف بجانب المهندسين القلائل الذين صمموا على البقاء، وإلى جانبهم عمال السكة الحديد وسائقوها، وإن لم يشاهد هناك، فإنه لابد مشغولٌ باجتماع مع الباشا أو مُشمرٌ ساعده لإعادة خدمة خطوط الاتصال اللاسلكي والهاتف المحلي؛ وفي صبح من صباحات المحنة تلك، وبالتحديد في أوائل صيف 1918م اصطحب مختار بك ابنه عبد الحميد الذي لم يتجاوز العاشرة من عمره إلى ثكنة العنبرية، حيث مقر قيادة دفاع حامية فخري باشا. كان كبير المهندسين يعرف أن الاجتماع الصباحي لم يكن عادياً مثله مثل استثنائيات زمان ومكان عقده، اجتماع خُصِّصَ لتوزيع

Twitter: @ketab_n

المهام الكبرى ودوريات المراقبة على الأبراج وترميم الأسوار، إلى جانب مراجعة تقارير كميات التموين ومقادير الطعام المخصص للجيش والمدنيين المقررين المغادرة أو الصامدين. الاجتماع مهم بلا شك، لكن ما العمل وقلب مختار بك؛ يتمزق لأنه لم يستطع ترك طفليه في المنـزل يشاهدان والدتهما وحبه الكبير ناجية وهي تكابد اهتزازات حمى الإنفلونزا الإسبانية القاتلة، فايزة الابنة الصغرى أرسلها مُحطم القلب إلى حيث منازل أهل زوجته، أما طفله الآخر الهلع. الخائف دائم البكاء من المجهول، وأصوات الرصاص، وتخاريف حمى والدته، فلم يجد الوالد مُشتت الذهن بُداً من أخذه إلى حيث ركن منـزوٍ من أركان ثكنة الأزمات، حتى ولو أغضب هذا الباشا وجعله يتمتم باللعنات التركية المكتومة التي يتهجاها جيداً مختار بك.

بعد الاجتماع الطويل الذي استمر أربع ساعات وحضره عددٌ من القادة مثل: إسماعيل روحي بك وكيل قائد اللواء الخامس والخمسين في المدينة، واليوزباشي عارف بك قائد الطابور الثاني، والبكباشي صائب بك قائد اللواء الثاني والأربعين، واليوزباشي حلمي قائد الطابور الثالث للواء الحادي والأربعين، والبكباشي توفيق بك قائد مدفعية المدينة، بعد ذاك الاجتماع الذي حضر قسماً منه مختار بك كبير المهندسين والمسؤول عن سرايا استحكامات البرق السلكي واللاسلكي، انصرف الجميع، والوقت ضُحى، كلٌ

Twitter: @ketab_n

إلى مهامه الموكلة، إلا أن مختار بك عنَّ له أن يشتري شيئاً من السوق القريب، يبعث به مع ابنه الصغير.. إلى حيث الهوى طريحُ الفراش.

...والوالد يتابع ثمرة حبه وولهه بناظريه وهو يهرول إلى أحد الدكاكين القلائل الذي ظل يبيع أشياء نادرة للمحرومين المعذبين، سقطت قذيفتان من سلاح مدفعية الثوار العرب الضاربين حصاراً عسكرياً على المدينة المنورة من كل الاتجاهات تقريباً؛ واحدة من القذيفتين حاولت مناوشة الطرف الشمالي للثكنة العسكرية، أما الأخرى فقد اتجهت لوسط السوق لتطيح بما فيه ومَن فيـه!

غطى الدخان الكثيف المكان الذي كان يمنع الرؤية ويتسلل إلى رئات الناس الفزعين والباحثين عن حقيقة ما جرى بعد أن يتفقدوا سلامة أطراف أجسامهم، ذاك الدخان الخليط من بقايا البارود والغبار، لم يمنع شخصاً واحداً من الصراخ والبحث كالمجنون عن عزيز صغير، كان قبل لحظات يعني الامتداد والتذكير بأحد فصول رواية عشق كتبها مُغرم غير عادي.

ـ عبد الحميد..! عبد الحميد..!

لم يسمع مختار بك إجابة، كل ما سمعه بعد فترة صمت موحشة تُخلّف بعدها عادةً الموت ذا الأشكال المختلفة، صراخ آخرين يبحثون عن أحبائهم، أو عن أنفسهم التي مزقتها ثلاثية: الخوف والتعجب واليأس.

Twitter: @ketab_n

انقشع الغبار. . تناثرت بقايا جُزئيات البارود. . وحلقت طيور سوداء فوق المكان الذي غطت الدماء ترابه، وتعلقت أحشاءُ أُناسٍ - للتو - كانوا يبيعون ويشترون ويأملون، فوق أروقة المتاجر أو تحت أكداس الحاجيات والبضائع التي لم يعد لها عارضٌ ولا راغب.

غير بعيد من المكان الذي وقف فيه كبير المهندسين وجرحٌ عميق في يده اليُسرى يدفع بشلال دمائه إلى جزئه الأسفل، كانت جثة طفله عبد الحميد تتمدد وقد تناثر نُخاع دماغها. راح الأب ينظر إلى السماء تارة، وإلى الجسد المشوه الذي يعرفه جيداً تارةً أخرى. لم يستطع الصراخ ولا النحيب. ظل بُرهةً بلا دموع ولا حتى بَدرَ منه مشروع علامة تدل على عمق المأساة وقسوة المشهد. لكن ذاك التوقف الطويل في ألمه والقصير في عمره. . لم يطل: جثا مختار بك على ركبتيه، ثم وضع كفيه على الأرض وراح يزحف نحو بقايا جسد عبد الحميد وهو يردد أشياءً. خلطت كلماتها بين الإيمان الذي غُذي به قديماً وجدانه، وبين الكُفر بكل شيء والذي يُنسي كل مرويات القضاء والقدر، وفرز أطراف حروب العصور كلها. . بل وكل التأكيدات التي سبق أن قيلت بأن لا عبثية في الصراع الأرضي الأبدي بين الخير والشر!!

بين القفص الصدري لطفله وبين بقايا الجمجمة المهشمة، وضع مختار بك رأسه آخذاً نفسه في نشيج طويل. بكاءٌ وأنين سُمع

Twitter: @ketab_n

مثله كثيراً في الجوار وهو ينطلق من الأحياء لعل ذلك الصوت الحزين الأزلي يوقظ الأموات، أو ليستدر شفقة الأزمان التي كأنها أعطت ظهرها - منذ البداية - لبنيها.

لم يعرف كبير المهندسين كيف وجد لفافة بيضاء، جمع بها رأس حبيبه المتناثر بجسده، ولم يعرف حتى كيف حمل الجسد المفتت، ولا لأي مكان سيذهب. أيذهب بدليل وحشية الإنسان للعدو حتى يقول له ألا يكفي هذا لتوقف قتالك؟ أيذهب به لقيادته ليقول لهم إنه يقدم طفله شهيداً لحروبهم غير المجدية وإرضاءً للسلطان وللجمعيات الماسونية التي تدير كُرسي السلطنة؟! أيذهب به إلى زملائه المهندسين ليقول لهم: إنه لا يهتم بما جرى وأن عليهم واجباً لأوطانهم ولدينهم أكثر من حزنهم - المفترض - عليهم وعلى مَن فقد؟! أيُظهر التجلد أمام العامة الذين لم يعرفوا منه سوى وجه التبتل في العمل مهما حدث، ليقول لهم استمروا في حياتكم وكأن شيئاً لم يحدث لمن تعتبرونه مثلاً أعلى لكم؟

..لا! سيذهب بتلك البقايا الإنسانية إلى من أمسكت بيديه بعد أن طبع قُبلة صباح ذاك اليوم المشؤوم على جبينها الناضح - بعرق الحمى - لترجوه أن يظل بجانبها هو والتوأمان؛ لأن هاجساً كان يصرخ بها أنها لن تراهما بعد ذلك. سيذهب بعبد الحميد كما هو، ليقول لها: إن الموت هو أصل الأشياء، تموت حكايات الحب.. ويموت المحبون.. وتموت تبعاً لذلك ثمرات العشق، لن يكون

Twitter: @ketab_n

هناك يأسٌ في الحياة يا ناجية؛ قطار الفناء - الذي سيتبعه الخلود - لن يترك أحداً، وحتى لو تأخرت رحلته لهذا السبب أو ذاك، سيصعد الجميع إلى داخل العربات حيث سيقابلون الأحبة الذين سافروا قبلهم إلى الأبدية، كما سيقابلون - للأسف - مَن يكرهونه ويكرههم!

سيقول لها: إن أبناءَنا صغار الحرب هم شهداء، سيدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب فلا تثريب عليهم، وعلينا أن نفتح سرادق التهاني لهم بدلاً من المواساة والتعازي!!

"يا لتلك التخاريف وقسوة قلبي!"

ذكرَ مختار بك نفسه بتلك الكلمات وهو لايزال يحمل مُتباطئاً جثمان الصبي المشوه إلى المنـزل الذي يفترش في إحدى زواياه جسداً هزيلاً عليلاً لطالما غمر كبير المهندسين بالحب والحنو.. والـمُتع وأذاقه شهد الحياة.

وقبل أن يصل كبير المهندسين ومعه دلائل قسوة الحياة والأحياء، إلى حيث أماكن الهوى والعشق القديم، شاهد من بعيد نساء ينتحبن ويولولن ويشققن الصدور..!! "يا للعجب أوصل خبر مقتل عبد الحميد إلى منزله بهذه السرعة؟ لم يعرف بوفاة الصبي إلا أنا المكلوم ونُدرة من الناس المشغولين - بدورهم - بفقد أحبائهم!"

Twitter: @ketab_n

سأل مختار بك نفسه وهو يتعجب من سرعة انتشار الأخبار السيئة الحزينة في أرجاء المدينة.. إلى هذا الحد!

"يا للمصيبة..! كيف كان وقعُ الخبر المشؤوم على كل تلك الرقة المسماة.. ناجية؟"

واصل كبير المهندسين طرح الأسئلة داخل نفسه وهو يتقدم بلفافته المليئة بالدماء والبقايا الإنسانية إلى حيث تجمعت النسوة أكثر من السابق، وإلى حيث رأى معهن خالات وخولة توأميه يبكون، ومعهم زائغة البصر.. الصغيرة فايزة. إنهم - يا للغرابة - يلتفتون وهم جزعون صارخون تارةً نحو المشهد الجنائزي الـمُقبل عليهم، وتارةً يولون وجهُهم صوب مَن في داخل المنزل: "بلاشك.. الخوف على خُلاصة العطف والحنوّ، هو الذي يدفعهم إلى تشتُت حزنهم.. أليس كذلك؟"

واصل مختار بك تقدمه إلى حيث الجمع النادب وهو يخترع لنفسه إجابات عن أسئلة ظلت بلا معنى ولا حجم إن قيست بحجم ومعنى أسئلة ما بعد نعي ما يحمله بين يديه وفي قلبه.

وفجأة انتبه كبير المهندسين لأمر غاب عن باله في أثناء شتات النفس وتلمس حجم المصاب الذي يحمله ثم راح يسأل داخله:

"ناجية كانت ضعيفة جداً وأنا أغادر المنزل في هذا الصباح، كانت تهذي والـهُزال بادياً عليها بعد ليلة حمى سبقتها ليال أخرى،

Twitter: @ketab_n

كيف نسيتُ أنها أقرب إلى الرحيل، منها إلى البقاء بجانب من أحبها إلى حد الجنون؟ لعن الله الانفلونزا الإسبانية، وكل بلد ينتج مرضاً، ولعن الله الحروب وأطرافها الذين يأتون بأسلحة الآخرين وأمراضهم؛ وشملتني اللعنة وأنا أشغل نفسي بحضور الاجتماعات والإشراف على المنشآت غافلاً عن عشقي الـخُرافي.

. . .لماذا لم أضع جسدي إلى حيث يرقد جسدها الواهن لعل تلك الحمى الخبيثة تنتقل إليّ بدلاً منها؟ لماذا لم أظل أتطلع إلى عينيها أطول وقت ممكن لعل في هذا ترياق لحالتها، فلطالما قالت: إن عيني هي بلسم جراح نفسها؟!

لماذا لم أقضِ الساعات الطوال وأنا أتحسس يديها الناعمتين؟ ألم تُقسم لي في خوالي الأيام أن ذاك التحسس يستطيع هزيمة الفراق والعلل وخفوت المشاعر؟!

بعد أن فاق مختار بك من رحلة اللوم والتقريع للنفس، وضع اللفافة التي كانت بيضاء وتحمل جثمان طفله، غير بعيد من عتبة الدار.

. .ثم جرى. .وجرى. . دخل منزله. . إلى غرفة الوله والغرام. . ليجْد جسد الحبيب المُسجى وقد فارق الحياة، والنسوة من حوله يندبن. شيء في نفسه يقول: أيندبنها أم يندبنني؟ أهن

Twitter: @ketab_n

حزينات على فراقها؟ أم أنهن يُعلنّ أن الأحزان على الأحياء الأموات أولى وأشد؟

بدون مراعاة لحرمة الموت، وبدون أن يُعطي بالاً لكل طلبات الأهل الـمُلتفين حوله وحول الحبيب المفارق بأن يستعيذ من الشيطان الرجيم وتذكر الله الرحيم، استلقى مختار بك على جانبه الأيمن ثم كشف وجه ناجية والتصق به وبكامل جسدها ليروح في فاصل من البكاء وخلائط من التأوهات والتنهدات؛ كان داخله يصرخ.. جسده يهتز، لم تكن الأمكنة والأزمنة في تلك اللحظة تعني شيئاً، لم تكن الحروب اللعينة مهما بلغت قُدسيتها تستحق هذا الفقدان المزدوج. لمن سيعيش بعد الآن؟ لمن يشتكي ألمه وحزنه؟..لربه الحكيم؟!

أفي نزع الحياة من هذا الجسد الجميل، وهلاك تلك الهالة للروح الشفيفة رحمة وحكمة؟!

استغفر مختار من تلك الوساوس، كما طلب الغفران من نفسه على أنه لم يعرف كنه الحياة وكيف تُدار؟!

حاول البعض نزع مختار بك من تلك الحالة الهستيرية ومن محاولاته كشف المزيد من جسد زوجته الراحلة، فلم يستطيعوا إلا بعد عناءٍ وتعنت شديدين، وبعد تذكيره بأن جثمان حبيب آخر مُسجى خارج المنزل ينتظر منه قسمة أخرى من الأحزان والعبرات.

Twitter: @ketab_n

لا يهم بعد ذلك ما حدث، فمأساة البعض تختصر أسى أمةٍ بكاملها، لكن لابد من التذكير في كثير من الأحايين ببقية أجزاء صورة الترويع التي يتجلى الإنسان في رسمها على هذه الأرض:

بعد منتصف صيف 1918م انتشر الجوع والمرض بين المدنيين والعسكريين، وتم تخصيص مئة جرام دقيقاً لكل عائلة أو مجموعة جُند، ومئة جرام تمراً بدلاً من السكر، وثلاثين جراماً لحماً، وعشرين جراماً ملحاً، أما الحيوانات فلم يُخصص لها طعام، وبهذا فإن قوة حملة الحجاز المدافعة ستفقد عُدة تنقُلاتها.

ثم بعد أسابيع بدأت حالات مطّردة من هرب الجند حتى تزايدت بشكل مُثير، مع العلم أن خط سكة حديد الحجاز قد أُغلق تماماً أمام المسافرين والمؤن من كِلا الاتجاهين، وما لبث الجميع أن سمعوا عن تكوين جمعية سرية تَحُض كُلَّ مَن في داخل المدينة المنورة من الجند مهما كانت جنسياتهم على الفرار.

اشتدت وطأة الجوع على الجميع في الأشهر اللاحقة، إلى حد أن أكلَ الناس الجراد تعويضاً عن السعرات الحرارية، وكان هذا بأمرٍ من القائد العام فخري باشا، الذي أوضح لمن سمع توصيته بأن القيادة تتلذذ بأكل الطائر الذي يشبه العصافير، فلا بأس من أن يقتدي الباقون بقيادتهم!!

إشتد الحصار أكثر فأكثر ولم يعد العالم يُعير انتباهاً لنداءات

Twitter: @ketab_n

المستغيثين داخل المدينة، فالدولة العثمانية تتهاوى ولا تستطيع مد يد العون، والحلفاء لم يبقَ لديهم من مناطق نفوذ الأتراك في غرب الجزيرة، لم يستسلم لصنائعهم من العرب إلا حامية فخري باشا، أما العربان حول المدينة فهم ينتظرون الانقضاض على من في الداخل؛ لأن أساطير الذهب التي يُحكى عنها كثيراً تُغريهم بالانتظار.. وإن طال!

وفي أواخر صيف 1918م سُمعت انفجارات عظيمة كانت آتية من المحيط وهي إحدى محطات شمال المدينة لسكة الحديد، تلك الانفجارات كانت دلالة على أن أجزاءً كبيرة من قضبان سكة حديد الحجاز قد دُمرت.

وفي طرق المدينة المنورة وحواريها شُوهدت حيوانات نافقة من الجوع بعد أن أكلت - عبثاً - الرمل لسد جوعها، أما البشر عسكريين ومدنيين فلم يبقَ لديهم إلا التمر لسد جوعهم؛ وأُمِرَ الجميع بقراءة القرآن بأصوات عالية وبشكل جماعي لرفع الروح المعنوية، أما الماء - عصب الحياة - فقد اسُتنبطت وسائل بدائية لحفر آبار بديلة عن الآبار التي استولى عليها الثوار أو التي خربت لهذا السبب أو ذاك، ولم يكتفِ الـمُحاصِرون للحامية بكل هذا، بل شرعوا في تسميم المؤن وخاصة الخبز للتأثير على صمود الحامية ورجالها.

Twitter: @ketab_n

. . .وتمر الأيام ويأتي عيدٌ يتبعه عيد، والأحوال تزداد سوءاً إلى أن أشرقت شمس يوم 6 تشرين الثاني/نوفمبر 1918م، ففي ذاك اليوم، وخطر المجاعة والمرض والقتل المتنوع يجثم على صدر المدينة المنورة ومَن فيها، وردت برقية لاسلكية من إستانبول كانت كافية لهز كل معنويات الفرق العسكرية داخل حامية المدينة المنورة، البرقية التي سمِعَ بها وفرح بمضمونها الثوار العرب الذين يحاصرون آخر معاقل العثمانيين في جزيرة العرب، كانت تأمرُ الفريق فخرالدين باشا قائد المدينة بتسليم المدينة إلى أقرب قائد من قواد جيوش الحلفاء. . أو أتباعهم!

كل مَن في المدينة المنورة وجد في مضمون البرقية ارتياحاً في نفسه ولو بشكل غير سافر. . عدا فخري باشا وصديقه مختار بك؛ لكن الأمور تداعت بعد ذلك إلى أن تقابلت نظرات الاثنين صُبح الاستسلام الرسمي وتنازل الباشا عن القيادة يوم 5 كانون الثاني/ يناير عام 1919م:

. . .انتبه الباشا والبك إلى أن شريط الذكريات، المشترك حيناً، والمتفرد حيناً آخر، والذي راحت أعينهما تستعرضانه بسرعة فائقة وإن بتركيز كبير ممزوج بألمٍ لا يوصف، هذا الشريط شارف على نهايته في أعقاب الساعة التي غادر فيها الضباط الثلاثة الطابق

Twitter: @ketab_n

العلوي لمقر القيادة العثمانية. لكن لتلك الحزمة من الذكريات بقية، بل إن القصة لن تُفهم وتكتمل إلا بتلك الفصول، التي كان بعضها يُقدم - قصداً - عن البعض الآخر، مما أخل - ظاهرياً - بفهم قراءتها.

قطع فخري باشا اللحظات الطويلة من الصمت والتحديق ليسأل كبير المهندسين العثمانيين:

ـ هل انتهى كل شيء يا مختار؟ هل انتهت أحلامنا بالمقاومة، وأحلامنا بعودة منتصرة غير متوقعة لمجد الخلافة والسلطنة؟ هل أصبحنا أسرى للنصارى وأعوانهم؟ ألن نستطيع تغيير مسار التاريخ ولو بفعل بسيط؟..ما أذلنا - أنا وأنت وقليلين - ونحن نشهد هذا اليوم المشؤوم!

تهدج صوت الباشا بعد تلك الكلمات وشوهدت دمعتان، كابر الرجل الصلب قاسي الملامح جاهداً منعهما من الانسياب بسهولة.

أما مختار بك فقد ترك قائد الحملة يعيش لحظات انكساره بدون تدخل، فلا فائدة من صد عواصف الأسى والإحباط التي يعيش كلاهما لحظاتها، لكنه أدرك أن في جعبته وجعبة الباشا ما يظنان أنه أحد روافد الإنقاذ للدولة المريضة، والتي يظنان أن مرضها لن يطول.. قال مختار بك وكأنه يُجيب عن أسئلة الباشا وأسئلة أخرى تدور - في الوقت ذاته - داخل نفسه:

Twitter: @ketab_n

ـ يا أفندم، الحروب كرٌ وفر، وانتصارٌ وهزيمة، والدول تسقط ثم تعود للنهوض مرةً أخرى. .مثل دورة الحياة، وإن اختلفت أهداف النشأة وبناءات الأمم، المهم أن تكون هناك ركائز سياسية واقتصادية لهذه العودة. . ولتكن هذه الـمُقومات سرية حتى تحين مواعيد البعث الجديد!

وميض خاطف شوهد في عينيْ الباشا وهو يقول:

ـ أتعرف يا مختار بأنني فرحتُ جداً وأنا أتلقى الأخبار الأولى لفقدانك للرسالة البالغة الأهمية، والمرسلة من إستانبول عبر دمشق. . أتعرف لماذا الحبور والموقف لا يدعو إلا للكآبة والجزع؟ لأنني كنتُ متأكداً بأن الخطة الأصلية لتوزيع الذهب ابتغاءً لكسب ودّ بعض القبائل العربية أو لشحذ همم رجالنا، لن تكون ذات فائدة - وموقفنا العسكري يتداعى - مهما كانت كمية الذهب الـمُرسلة مُغرية وخاطفة للقلوب والعقول؛ ولأنني كنت متأكداً أيضاً أن الخرائط البديلة لإخفاء الذهب بين المحطات لن تكون مجزية في ظل معرفة الجميع لما سيكون من عمليات حفر ودفن مُشهرة للسبائك والجنيهات الذهبية.

. . .كل شيء يا مختار سيكون مكشوفاً وبعلم الأطراف كلها، وحتى لو تمت عملية الإخفاء بنجاح، فلن يرث الكنوز إلا هؤلاء المتحكمون الـجُدد في الآستانة، وليس سلالة الأقدمين أصحاب

Twitter: @ketab_n

القصور العظيمة.. يا للسخرية! كيف ترث تلك الجمعيات الثروات وهي تُسلم كل أملاكها الآن؟!

أومأ مختار بك برأسه مؤمّناً على كلام الباشا ثم أخرج الكلمات التالية بكثير من التباطؤ، وكأنه يريد التذكير بعمل ما ضخم قام به ويعرفه محدثه حق المعرفة:

ـ نعم كانت حادثة أول ربيع 1917م شديدة الوطأة بخوفها عليَّ، ولكنها ذكرتني بأن استحداث البدائل في أثناء أزمات الحروب وانهيارات الدول ضرورية، وخاصةً للجماعات المؤمنة بعودة الحياة للأفكار القديمة التي على أساسها نشأت الحكومات وتأسست مجتمعات. أتعرف يا أفندم أنه وفي نفس الوقت الذي تبينتُ فيه أن الرسالة الذهبية قد فُقدت - أو سُرقت - خلال معمعة هجوم الثوار العرب على قاطرتنا بين إسطبل عنتر وبواط، كنتُ قد اتخذتُ قراراً بديلاً سبق أن رسمته في مُخيلتي لو أن حدثاً خطيراً منع القطار الحامل للسبائك والجنيهات الذهبية من الوصول إلى المدينة المنورة.

...كتبتُ - كما تعرف بذلك يا باشا – رسالة بديلة مزورة بعناية، لن يشك قارئها وقارئ الخرائط المرفقة معها في أن الذهب قد دُسَّ على بعد أمتار معينة من قضبان السكة الحديد المارة بين أربع محطات: وادي الأثل ودار الحاج وإسطبل عنتر ووبواط.

Twitter: @ketab_n

لقد أشعتُ هذه الدعاية وسربت الرسالة المزيفة وخرائطها المزيفة للبعض الذي أظنه قادراً على إيصال أخبارنا للعدو المعروف وغير المعروف!

ولم أكتفِ بهذا يا أفندم. .كما تذكر، بل أمرتُ من أثق فيهم من الجند بأن يدفنوا بعض السبائك والجنيهات القليلة جداً في هذه الأماكن التي تُبينها الخرائط المزيفة، لعل في هذا زيادة إقناع للباحثين عن الذهب أن يجدّوا في البحث عن أماكن الكنـز غير الموجود، ويتركوا جاهلين ومن خلال خديعتنا مصدر ثروة الأمة وإحدى أهم ركائز إحيائها من جديد. وهأنذا أُقسم يا باشا بأغلظ الأيمان أن لا أحد يعلم غيري وغيرك بمكان الكنـز الذهبي وأن احتفظ - كما ستحتفظ أفندم - بخريطتين متشابهتين لا يمكن كشف مكان الذهب إلا بفك أسرار - إحداها - على الأقل، والتي ستُخبر بدورها عن مكان الذهب، بعد نبش حفرة عميقة - غير معروفة إلا لنا - دُفن فيها رسمٌ دقيق آخر لمكان سري أُخفي فيه كنـز الأمة العثمانية.

لم تُظهر تلك المعلومات تأثيراً واضحاً على محيّا مختار بك وكأنه قد حفظ كل جُزئياتها وكل أسرارها وملابساتها التي أحاطت بها، لكنه رغم هذا صمم على بعث نفس تلك الرسالة التي لا يمل ولا يكل من إرسالها لفخري باشا كلما خلت وصفت لهما الأمكنة والأزمنة. . وما أقلها!!

Twitter: @ketab_n

ـ. . .مختار، أعرف أنك لن تُخلف في قسمك إطلاقاً: ستكون نسخة خريطة الكنـز لديك وستكون الأُخرى معي، ولن يستطيع أحدٌ أخذها منا إلا عندما يُسقينا - ذاك المجهول - الموت، لن نُسلم الكنـز وما نعرفه من أمكنة إخفائه إلا لسلطان وخليفة من سلالة بني عثمان يشابه آباءَه وأجداده الأقدمين، وحتى لو انحنينا - أنا وأنت - أمام عاصفة أزمنة حكم تلك الجمعيات وعصور التغريب في بلادنا - المؤقتة إن شاء الله - حتى لو انضممنا ظاهرياً لتلك الجمعيات الكافرة فلن نكون إلا نحن. .خُداماً للإسلام وخلفاء الإسلام الأوفياء. سنتخذ من التقية السياسية ستاراً نُخفي وراءه تنظيماتنا السرية الداعية لعودة الخلافة وإبطال الحكم العلماني، وحينها وعند عودة الحكم الراشد سنقدم كل معلوماتنا عن الكنـز العثماني المخفي في مكان ما في المدينة المنورة. . على فكرة يا مختار لابد من إشاعة أنباء كثيرة عن وجود ذهب وممتلكات ثمينة عائدة لأهالي المدينة الذين هُجِّرُوا في محنة سفر برلك. يجب أن يشعر عربان الثورة العربية الذين يملأ قلوبهم الطمع بألا ذهب عثمانياً فعلياً قد أُخفي من قِبل قيادة الحامية هنا أو هناك، وأن الأكيد هو وجود ثروات عائدة لسكان المدينة المنورة أُخفيت بين شقوق الجدران وتحت أرضيات منازلهم الخاوية، وبهذا سنُشتِت انتباه الطامعين ونضمن في الوقت نفسه إخفاء السر العظيم أطول مدة ممكنة.

Twitter: @ketab_n

لحظتها تذكر مختار بك، والحديث يدور عن الطامعين، تلك المهمة الصعبة التي لا تغيب عن بال أحدٍ في مدينة المأساة والحصار:

ـ أتعرف يا أفندم أننا قمنا بأفضل من تلك المهمة الـمُشرِّفة المتعلقة بالإرث المخفي للعثمانيين الصادقين الـخُلص، عندما نقلنا مُقتنيات الحجرة النبوية الشريفة إلى إستانبول وظواهر انهيار الجبهات العثمانية لا تَخفى على أحدٍ؟ فِعلُنا ذاك أنقذ إرث المسلمين العظيم من أن يقع تحت يد الجهلاء في جزيرة العرب أو في يد صانعي أقدارهم هذه الأيام من الكفار؛ سيتذكر التاريخ ما فعلناه يا باشا، ما كان معروفاً وظاهراً للعيان، وما كان مجهولاً، سيُثبت التاريخ نفعه وعبقرية إخفائه.

تنهد فخري باشا بعمق وكأنه قد أزاح هماً قديماً عن صدره.. مع بقاء غيوم قلقٍ ثقيلة لا يعرف متى تنجلي؛ ولكسر هذه الدائرة من التفكير فاجأ القائد كبير المهندسين بهذا السؤال:

ـ أتؤمن بالله يا مختار.. الـمُقدر لكل شيء.. الحكيم العليم؟!

وقع السؤال على مختار بك وقع الصاعقة، وظل للحظات لا يدري كيف يُجيب عن سؤالٍ لم يكن يخطر على باله - قط - أن يسمعه، خاصةً من محدثه.. المتطرف في عقيدته:

Twitter: @ketab_n

ـ إن كنت تقصد يا باشا المعنى الحرفي لكلمة الله أي الخالق لكل شيء فأنا أؤمن به.. كما أنت يا صاحب التقوى والمبادئ الإسلامية الثابتة، والمحافظ على العبادات، والمنافح عن الرموز الإسلامية إلى آخر رمق، وإن كنت تقصد شيئاً آخر غير هذا فأرجو التوضيح؟!

لم تقع تلك الإجابة موقعاً حسناً في نفس الباشا لهذا أراد توضيح مقصده:

ـ أين ربنا الرحمن..الرحيم.. العطوف. من كل ما يحدث لنا؟ لماذا تركنا نواجه الجوع والمرض والهزيمة وذُل الاستسلام؟ ألم نكن ندافع عن خُلفائه وقبر رسوله؟ ألم نرفع ليلاً ونهاراً شعارات الإسلام ومقاومة النصارى الغازين الذين يدفعون بعملائهم العرب المغلوبين على أمرهم والمنقادين لكل من حمل رايات النصر وأكياس الذهب؟ في سابق الدهور كان الخالق يفصل بين الظالم والمظلوم، وبين الحق والباطل - في الحال والتوّ - من خلال ريحٍ صرصرٍ، أو طائر في منقاره حجر قاتل، أو زلازل وفيضانات لا تُبقي ولا تذر، فأين الآن تلك النجدات؟ وأين الحكم العاجل الرباني بين الناس؟ لماذا يُترك الأتقياء المنادون باسم الإسلام وخلفائه على الأرض يكابدون الأمرّين ويُقَادون في الأغلال، بعد أن يكسرَ شوكتهم أعداء الإسلام أو المنافقون عبيد من غلب؟!

امتقع وجه مختار بك من جراء وقع تلك الأسئلة عليه، وما

Twitter: @ketab_n

سمعه من كلمات الباشا المثقلة بالأسى والاستنكار، لم يكن يصدق أن مجريات الأحداث قد تـجُر الأتقياء الصامدين وهم يتقلبون في المحن إلى تلك الزاوية المحشورة في داخل النفس، والتي يُخرج الإنسان بعدها خبايا الصدور المتوارية، لكن فكرة أخرى التمعت أمامه تقول: لماذا لا تكون تلك الأسئلة مجرد بحثٍ عن يقين غاب لفترة بسيطة؟ لأن الوقائع كانت من السماكة والثقل إلى حدٍ أخفت مؤقتاً ذاك الاعتقاد، إلى أن تحين رجعةٌ أخرى إيمانية.. ولو بمساعدة صديق يبحث كذلك عن اليقين نفسه:

ـ يا باشا لا تؤخذ نهايات الأحداث العظيمة بهذا الشكل، وحتى نحن لا نعلم مثلاً إن كان ما نعايشه الآن نهاية أو بداية؟! ولا نعلم كذلك إن كان الفرز بهذا الوضوح في السماء: مسلمون أتقياء يدافعون عن شرف الإسلام وسلاطينه، وخونة ومستعمرون يريدون نسف كل ما نُنادي به؟!..أكُنا فعلاً نمثل الإسلام الحقيقي ونحن نحارب الجميع من حولنا؟ ألَـم نظلم ونذيق أهل البلاد التي مددنا نفوذنا العثماني عليها الأمرّين؟ ألم نُهمل استنهاض غوثهم ومعونتهم عندما عاملناهم كأنما هم من الدرجة السُفلى للرعايا؟ أين العلوم ووسائل الطباعة المتقدمة، وصناعات الحرب والسلم والطبابة التي أشعرناهم - افتراضاً - بأننا عازمون على إقامتها على أرضهم بعد أن نُقيمها على أرضنا، وأن كل هذا سيكون رافداً لنا - جميعاً - في حربنا المشتركة ضد الكفار الغازين؟ أين حقوق تلك

Twitter: @ketab_n

الجماعات والقوميات؟ وهل استنبطنا وسائل لإسماع أصواتهم في دوائر صُنع القرار اللاهية في الآستانة؟ هل الباحثون عن دور لهم في عالم متغير سقطت في أزمنته دول ونهضت دول أخرى مُلومون عندما يستنجدون بمن يُمنيهم بالاستقلال وإرجاع عزهم القديم؟ هل هؤلاء العرب الذين يحاصرون المدينة المنورة ويريدون ذهابنا للأبد من بلادهم مثلهم مثل ابن سعود في وسط وشرق جزيرته، وأهل الجنوب؛ وعرب الشام كلهم مخطئون منافقون؟

. . .دار الكفر تحارب دار الإيمان! تلك تقسيمات اخترعناها لوحدنا، ولو عاد بنا الزمان - أنا وأنت - لصممنا على اختراعها والذود عن كل ما ترمز إليه، لكنها ليست بالتأكيد التقسيم النهائي والأوحد عند الخالق - كما أظن - ثم هناك شيء آخر يا باشا أريد أن أقوله بعدما تعذُرني على جرأتي السابقة واللاحقة:

عندما كانت البشرية في طفولتها كان التدخل الإلهي واجب الحضور والتأثير، كما يحمي الآباء أبناءهم الصغار، أما وقد شبت الإنسانية والمجتمعات وارتقت مداركها ومعارفها وشاخت فلا حاجة لتلك الحماية العاجلة الربانية، كما لا حاجة لحماية الآباء للأبناء الذين اشتدت سواعدهم. لقد خلق وترك الرب القادر آليات وأنظمة تحكم الوجود وقال للناس: إن هذه حدود وأشكال الخير والشر، وعليكم أن تدافعوا عن اختياراتكم وأنا أراقبكم، وسيكون تدخلي محدوداً وفي أضيق نطاق؛ لأنه لا معنى لهذا التدخل وقد اكتملت

Twitter: @ketab_n

الرسالات وتم توضيح أشياء كثيرة كانت مخفية في الأزمنة السحيقة السابقة.

لأجل هذا نحن نعاني الآن.. نُهزم.. نُؤسر.. نبكي، نستنجد بالله ونحن غافلون عن إجابات الأسئلة السابقة.. والحقائق التي أظنها كذلك، وطرحتها أمام مسامعكم الآن.. أفندم.

ابتسامة سخرية ارتسمت على وجه الباشا وهو يقول:

- ولماذا ونحن نكتنز كل هذا الكم من المعرفة لم نستطع الخروج من دائرة اختياراتنا الخاسرة دائماً؟!

أجاب كبير المهندسين وقد سرته رؤية قائده وقد تلبس ثوب الباحث عن الإجابات، بعد أن ملَّ، على ما يبدو، من أدوار القيادة واحتكاراتها لكل شيء.. حتى الحقيقة:

- لأننا نحن البشر جزءٌ أصيل من هذه الآليات الكونية.. حروبنا.. أحقادنا.. مشاعرنا..سلوكياتنا.. خلافاتنا البسيطة والكبيرة.. الحب والكراهية..ولادتنا ورمينا بعد ذلك في تراب المقابر؛ كل هذا يمثل حركة الزمن ومسيرة الإنسان على هذه الأرض، وحسب اختياراتنا الفعلية ستكون نتائج نهاياتنا. أما النجدة والنسيان الرباني للدُنيويين فذلك شأنٌ آخر، لا يمكن لنا تحديده ونحن محكومون بأبعادنا الإنسانية الضعيفة وغير المكتملة للفهم الماورائي.

Twitter: @ketab_n

أشاح الباشا بوجهه قليلاً حتى لا يُعطي لعيون محدثه فرصة اكتشاف ردود فعل كلامه على من تعود على كتمان مشاعره أمامه، وبعد لحظات جاءت تلك الكلمات ذات المسار المختلف:

ـ ما كان دور الحب في حياتك يا مختار؟ ماذا كانت تعني لك ناجية وأنت تعيش معمعة الحرب وكل توابع مأساتها؟

تنهد كبير المهندسين وتورم صدغاه بالدماء، بعد أن سمع ذاك السؤال الذي فتح عليه في وقت واحد بابي النعيم.. وجهنم؛ يا ليت الباشا لم يطرحه.. ويا ليته طرحه منذ زمن:

ـ قديماً يا أفندم تخيلتُ المرأة على أنها فُسحة بين كربين.. بل بين آلامٍ عظيمة نُلاقيها دائماً في حياتنا اليومية، وبين أحضانها ننسى أننا عدمٌ قادمون من عدم، وذاهبون إلى عدم.. نغفل عن أننا نصارع في هذه الدنيا أنفسنا، إن لم نجد من نتعارك معه في دور العلم والعمل والسياسة.

المرأة في اعتقادي القديم يا باشا مجرد مساحةٍ فقط تُبعدنا عن الحزن اليومي الذي لا يكاد يفارقنا إلا ويعود إلينا هادراً مُكتسحاً كل شيء في نفوسنا الضعيفة، المخلوقة من أتربة تراكمت بفعل رمم الأحزان الماضية، المرأة تأتي لنا بالولد فنفرح إذ أصبح لنا امتداد، وما علمنا أننا بذلك نسكب المزيد من شراب الأسى في كأسٍ مثقوبة لا يمكن ملؤها أبداً.

Twitter: @ketab_n

. . .وعندما أحببتُ ناجية تغير كل شيء في اعتقادي القديم، ناجية وحبها الذي خالط الأوردة والشرايين كانت تُمثل لي الحياة كُلها. . دولها. . الرعية والرُعاة؛ هي التاريخ الذي قرأناه، والذي نتوقع أن يقرأه عنا القادمون؛ هي النجاة من الكروب، هي النقيض للفناء. .هي احتجاجي على ما أراه من مظالم دولتنا، ومظالم الآخرين عليها، هي الثبات في عالم مُزلزل لاعتقادي في نشأة الدول واستمرارها، كنت أرى - ولا عجب - ولعي السابق بالإرث العثماني فيها، وكنت أطارحها الغرام وكأنني أصارع حقيقة الخذلان المقبل الذي كان ماثلاً أمام ناظريّ لا يغيب.

. . .ناجية يا باشا كانت تُشعرني، كلما نظرت في عينيها أو لمست يديها وتذوقت رحيق شفتيها، بأنني أعود فتياً لا يخشى الهرم، جباراً لا يهاب لا سقوط الدول التي أفنينا عمرنا في خدمتها والانصياع لأوامرها، كانت تُشعرني بأنني عفريت قد تفلت من قمم الأساطير السابقة، والتوقعات القادمة، وحكايات الحاضر البائس.

لم تكن يا باشا تغيب عن بالي كلما عدتُ من رحلة عمل إلى المدينة، الإشاعات التي كانت تصلني عن سلوكيات غير حميدة تُلصق بناجية، لكنني كنتُ أتجاهلها حالما أرى عينيها الـمُرسلة شعلة تفكُ خاتمَ إسار جسدي وروحي. . نعم! كنت أعاتبها على تصرف قامت به، وقبل أن تُقسم بالنفي، أروحُ أطبع على شفتيها

Twitter: @ketab_n

قبلة حارة تقول: كفى بهذا الاكتناز الذي بللت الدموع طرفيه ولا يدري ماذا يقول.. اعتذاراً؛ ثم تُمرر أصابع يديها لتتشابك مع أصابع يدي وكأنها تُقسم بأن ولهها بيَّ وبما أمثله - حقيقةً أو مجازاً - لايزال عُذريّ المشاعر لم يتغيَّر، وبهذا كنت أعود لاعتقاداتي المرتبطة بها.. أن لا موت لكل الأشياء التي نُحبها، وأنها ستظلُّ كما رغبتُ واعتقدتُ وتصورتُ!

...أتعرف يا باشا: كلما أطلق العُصاة قذيفة تحدث ثُقباً في أسوار الحامية ووجعاً في قلبكم الرحيم على كل ما تمثله هذه المدينة العظيمة من رموز، أعود أنا، في الوقت نفسه، بعد أن أُتمم مهامي الموكلة إلي بعد كل هجوم، إلى ناجية لِتسُدَ ثقب ذاكرتي القديمة الـمُحمّلة بأشياء كثيرة؛ أعود إليها لتفتح لي ثُقباً آخر يتسلل من خلاله ضوء يُنير مستقبلاً مُتخيلاً.

وبعد أن تكاثرت علل حبيبتي واقترب الموت منها، فكرتُ يا باشا - واغفر لي هذا التفكير - أن أهرب بها إلى خارج المدينة المنورة، كنت أريد لها أن تعيش، لم أكن أتخيل أن أُلقي بوجهها الجميل تحت التراب، وأن تُفكك خُصلات شعرها الطويل تلك الحشرات الأرضية بدلاً من أناملي؛ كنت في صراع بين واجبي الوطني والديني ومحبتي لك شخصياً وبـمُثلك العليا.. وبين الخوف من زوال حبيبتي واختفائها.

...وفي الليلة السابقة لِموتها قالت لي:

Twitter: @ketab_n

ـ أتستطيع أن تجد بعدي مثل أنفاسي؟ هل يراودك شعور - ولو خاطفاً - بأن تجد في عيون الأخريات ما تجد في عينيّ اللتين تقول عنهما: إن فيهما مزيجاً من الحزن والفرح، والأنفة والتذلل، والاكتفاء والرغبة المجنونة؟!

طلبت مني في ذات اليوم الحزين وهي بين اليقظة والغفو - يا لحرقة قلبي! - أن أقرأ عليها أبياتاً من شعر محمد عاكف[1] الذي ترجمته لها بالعربية.. فقرأتُ لها هذه الأبيات وأنا أمسح جبينها المعروق:

" نعم.. هناك حقيقة واحدة هي أني سأرحل عن هذه الدنيا.

سافرت وقابلت أُناساً كثيرين فلم أجن إلا الحيرة.

نعم، كلنا مشغولون بعشق النفس والذات.

هذا العشق العجيب الذي لا نعترف بوجوده حتى ولو بإشارة. "

---

(1) وُلد الشاعر التركي محمد عاكف أرصوى بمدينة إستانبول عام 1873م، تلقى تعليماً دينياً إلى جانب تعلم العربية والفارسية، حصل على الدبلوم العالي من مدرسة الطب البيطري في هالقالي، أخرج مجلات أدبية وسياسية، انتخب عضواً في البرلمان العثماني عام 1920م، كتب قصيدة نشيد الاستقلال الشهيرة عام 1921م، توفى في 27 ديسمبر عام 1936م في إستانبول بعد مرضٍ عضال تعايش معه في مصر.

Twitter: @ketab_n

. . .بعد أن صمتت شفتاي عن الكلام مخافة إيقاظها من نوم خدر الألم. .فاجأتني - جميلة الجميلات - بنصف فتحة من عينيها الناعستين، كنت أعرف من تلك الحركة البطيئة وتدوير أصابع اليدين كالكرة أنها ترغب في الاستزادة من أبيات الشاعر التركي الذي تُحبه. . لأنني أحبه. . فأعود أقول لها:

" لك زوج وأشياؤك، ولك ربيع فماذا تنتظر؟

أيها البلبل، إذا قامت القيامة فما هو همك؟

ألم تولد في حضن من الزمرد، وتحلق في السلطنة السماوية؟

لو هبت الدنيا تهدم البيوت والوطن، ما تضرر عشك! "

توقف مختار بك بعد آخر تلك الكلمات الشعرية، وبدا أنه سينخرط في فاصل بكائي طويل، لكنه تماسك في آخر لحظة. . لا لشيء، إلا أنه احتار لأي حُزنٍ ستختار دموعه الانحياز: ألتلك الذكريات مع حب راحل، أم على الولد. . الامتداد، أم على انهيار حلم الدولة واقتراب أسر أحد رجالها العظماء، أم على نفسه التي تكوم فيها كل هذا الأسى؟!

لم تَرُق لحظات الضعف تلك لفخري باشا، فلن يتفوق في رأيه حزنٌ مهما عظم. . ، ومهما كان ولمن كان، على فواجع رؤية رايات استسلام الجيوش وعزل قادتها الراغبين في مواصلة القتال. أما إذا كانت الجيوش المهزومة، هي آخر من يطلق رصاصات

Twitter: @ketab_n

الدفاع عن رمز تاريخي ظل الناس يخشونه طويلاً، فذاك هو الحزن الأسود الذي لا يعادله حزنٌ آخر، مهما بالغ هذا أو ذاك في تجسيم أسطورية مأساتهم الشخصية.

هذه المخاتلة في إظهار مشاعر الكرب، والتأفف من البوح عما تخفيه أعماق النفس الإنسانية، لم يصمدا طويلاً، فللباشا كذلك لحظات ضعف بشرية عبرت عنها تلك الكلمات:

- في عام 1900م تزوجتُ، مُتأخراً، المرأة الأولى والأخيرة في حياتي يا مختار، كانت أم الأولاد تُسمى عائشة بنت أحمد صدقي باشا، وأنجبتُ منها محمد سليم ومحمد أردخان وصبحية وآخان؛ لم أحبها ولم أكرهها؛ لم أتعلق بها، لكنني في الوقت نفسه لم أُطقْ منزلي الرعوي بدونها؛ لا أتذكر أنها سألتني يوماً حاجة خاصة لها وبها، ولا أتذكر أيضاً أنها حاولت أن تسأل يوماً عن سبب تأزمي، وعلامَ سكنت دائماً تلك الهالات السوداء حول عينيّ؟!

إنني أتساءل يا بك الآن: هل لو أنني قد صادفت يوماً حباً عاصفاً أثارته زوجتي عائشة أكنتُ قد وصلت إلى ما أنا عليه الآن من أزمة.. ومعي أنت والأخيار.. ومدينتي؟ أم أن ذاك الحُب المُتخيل كان سيقودني إلى عناد أقوى لصد ما أعتقد أنه سينسف الدول التي أتشرف بخدمتها، وسينسف بالتالي قصص الحب الكثيرة التي يصنعها الناس.. مثلك؟!

Twitter: @ketab_n

في صباح الخامس من كانون ثاني يناير سنة 1919م، وبعد تلك الأحاديث الطويلة، عادت نظرات الرجلين لتتصالب مرة أخرى، وفيها الكثير من الأسئلة التي خشيا أن تُطرح، وأفكار عديدة لم يتجرأ على تداولها وكشفها.

كان من الممكن أن تستمر تلك النظرات الحائرة، لولا نداء خارجي طالب فيه أحدهم فخرالدين باشا بأن يستعد لتسليم نفسه إلى قيادة الثوار العرب، والذين بدأت طلائعهم تدخل المدينة المنورة بعد إعلان استسلام القوات العثمانية؛ في تلك اللحظات طلبَ الباشا من مختار بك أن ينزل إلى أصحاب النداء ويرجو منهم أن يوافقوا على آخر أمنيات القائد العام السابق للقوات العثمانية في الحجاز؛ كانت الأمنية هي أن يخطب في الناس على منبر الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - وألا يُقَدم سيفه الخاص لأي قائد آخر من القيادة المنتصرة أو حتى من القيادة العثمانية المهزومة!

بعد مفاوضات عسيرة وطويلة وافقت ممثلية القيادة العربية المنتصرة على هذه الأمنية التي لم تكن تعني لها شيئاً!

طُلب من الناس صبح يوم الاستسلام التاريخي أن يستمعوا بعد صلاة الظهر لخطبة الوداع التي سيُلقيها فخري باشا على جموع المصلين المحزونين منهم والفرحين. . وآخرين لا تعني لهم مثل تلك المواقف أي شيء.

Twitter: @ketab_n

بين الضُحى وصلاة الظهر، انشغل فخري باشا ومختار بك بفتح حقائب وثائقهما السرية، ولم تمر ساعة من الزمن إلا وقد كانت كل تلك الوثائق قد أُحرقت تماماً.. إلا وثيقتين أدخلَ كل واحد منهما إحداها في فتحة صغيرة داخل كمر[1] لف وسطيهما؛ وبدون أن ينطقا بشيء بعدما أقدما على هذا الفعل، نظر كل واحد منهما إلى الآخر نظرة كانت تعني فيما تعنيه أن الموت هو مقابل فقد هاتين الوثيقتين.

...بعد صلاة الظهر طُلب من المصلين الاستماع إلى خطبة من القائد السابق للحملة العثمانية في الحجاز، لكن المُنادى باسمه لم يستطع إخفاء تأثره فلم يستجب للنداء الذي طالب به أصلاً هو نفسه، وما هي إلّا لحظات حتى شُوهد الباشا وفي منظر تاريخي لا يمكن تكراره بسهولة يخرج منديله الطويل ويمسح دموعه التي كان من المستحيل مشاهدتها من قبل.

وبدلاً من الصعود على منبر المسجد النبوي، خطا الباشا خطوات وقف بعدها أمام باب المواجهة، وهو المكان الذي يقابل تماماً ضريح رسول الإسلام الكريم، عليه الصلاة والسلام، وهناك عقد الباشا يديه وتمتم بكلمات لم يُفهم منها شيءٌ، ثم بسط يديه ودعا الله أن يغفر له ولجنده الذين قضوا في الحرب، وفي حركة

(1) الكمر زُنار من الجلد المقوى تحفظ فيه الأشياء المهمة.

Twitter: @ketab_n

مشابهة انزوى رجل الساعة خطوة أخرى إلى جهة اليمين، ليقف أمام قبر صاحبي محمد - عليه أفضل الصلاة والتسليم - مُكملاً دعاءه الـمُبلل لعينيه وعيون الكثيرين.

بعد ذاك التاريخ بأربعة أيام وبينما خيالة وهجانة الثورة العربية ممن يُسمون أنفسهم بقوة الانضباط ينشطون في السلب والنهب وتدمير الرموز العثمانية، اقتيد فخري الدين باشا تحت حراسة عربية إلى ينبع، ليُسلم إلى حُراسه الإنجليز الذين احتفظوا به في مكان سري إلى يوم 23 كانون الثاني/يناير 1919م، واقتيد بعد ذلك إلى سطح سفينة ترفع العلم الإنجليزي إلى مصر، حيث سُجنَ هناك في قصر النيل لمدة ستة أشهر.

أما مختار بك فقد تم إرساله مخفوراً إلى دمشق بعد أسبوع من التحقيق المكثف معه في المدينة المنورة، وكتابة تعهدات كثيرة بألا يمارس عملاً سياسياً أو هندسياً دون إشعار من قيادة الحلفاء في الشام الـمُنتشين بانتصاراتهم.

كان الاثنان وهما يفترقان في أرض الله الواسعة يشعران بأن دائرة الحزن والانكسار والهزيمة التي حلت بهما وبدولتهما لم تكتمل حلقاتها تماماً؛ لقد خلفا في مكان ما ما لا يخطر على بال أحد: . كنـزهم العثماني الذي أصبح تُركياً فيما بعد، تختلط في حكاياته التي قيلت عنه، الأساطير. . والحقائق!

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

مُحرضات البوسفور

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الزمان: 4 أيار/مايو 2005م.

المكان: ردهة فندق قصر كنمبسكي في إستانبول.

* * *

لم يتغير الشكل الخارجي لـمهند السعدي فقط بين 2001/ 2005م فحسب، بل كانت التغيرات النفسية أكثر عمقاً من غيرها الظاهرة.

ذبُلت نضارة الوجه، واتسعت مساحة الشعر المفقود في مقدمة الرأس، وانحنى أكثر فأكثر كتفا الرجل؛ مما جعله أكبر من سنه الحقيقية بكثير.

بين تلك السنوات الأربع صادف مهند أحداثاً مؤلمة قاسية، أَقسم البعض ممن يعرف الرجل أنه لو قابل جزءاً صغيراً منها، لكان كافياً للمستهدف زيارة "مُرستان" المجانين!

أليس كافياً أن توئد الأحلام، وتُنسف التوقعات، ويموت الكثير من الأهل والصحب والنُدماء؟

لم يكن كل هذا، مع ضخامته، كافياً لزيادة جراح نفس من

Twitter: @ketab_n

يمتهن الأعمال الحرة ويلقي المحاضرات الجامعية، ويشارك من حينٍ إلى آخر في كتابة المقالات الصحفية:

بين تلك السنوات أنهى الرجل الذي شارف على الخمسين كتابة أولى رواياته. كان يعرف منذ زمن طويل أن أحداث قصته المكتوبة لن تتشابه ردود الفعل الأدبية، وغير الأدبية، عليها كما كل الأعمال الأدبية المحلية المشابهة. كان يعرف أن الشفافية المفرطة فيها والبوح المسكوت عنه سابقاً،كافيان لإثارة الزوابع عليه وعلى ما خطه يراعهُ.

مجتمع مهند لم يكن، حقيقةً، برغم كل التغيرات الكثيرة التي حدثت في داخله مهيأ تماماً لسماع مَن يحاول عرض وقائع الماضي البعيد والقريب على ذاكرته، الحقيقة. لأن تلك الذاكرة صاحبة الانتقاء أرادت - بفعل فاعل- تناسي تلك الأحداث وإحالة تراب النسيان عليها.

أبطال روايته وأحداثها قالوا ما كان يجب ألا يُقال، وذكَّروا القراء بما هو خلاف ما سبق وقد قرأوه أو عرفوه عن تاريخ شخوصهم العامة.. والخاصة.

نشرت الرواية في طبعتها الأولى في أواخر 2004م، واستحسن كاتبها، والضغوط المختلفة الأشكال تتوالى عليه، إيقاف نشرها وتوزيعها في المكتبات ونقاط البيع.. بعد نشرها بشهرين

Twitter: @ketab_n

فقط من عرضها في معارض الكتب، مما جعلها أسطورة عند الكثيرين ورفع من سعر نسخها المصورة في السوق السوداء إلى أسعار فلكية، لتصب عوائدها المالية في جيوب الكثيرين.. عدا جيب الكاتب الحزين المصدوم!

وفي محاولة للخروج من فخاخ الأكماد والكروب، اتخذ مهند قراره بأخذ إجازة عائلية حقيقية إلى مدينة التاريخ.. بيزنطة القديمة.. القسطنطينية.. إستانبول.. لا يهم الاسم، المهم إلى تلك البقاع التي تنتصب فيها القصور المطلة على مضيق خليج القرن الذهبي.

ما أخفاه الرجل المهموم بأمره على أسرته الصغيرة بعد اختيار إستانبول كمنطلق أول لاستراحة الفكر والروح والجسد، هي الاعتبارات الأخرى التي لا يأتي في أولها مشاهدة معالم الماضي المندثر فحسب، بل لاعتبارين آخرين كذلك.. أولهما: أن الرجل المسكون بالمواجهة قرر أن يكتب رواية أخرى له لا تقل صخباً عن الرواية الأولى؛ رواية أخرى لها علاقة بالسلاطين الذين سكنوا القصور على البوسفور، وبالآخرين الذين سكنوا بيوت الطين الـمُطلة على الأودية الجافة في جزيرة العرب. أما الاعتبار الثاني.. والأهم فهو: أن الفندق الذي اختاره مهند السعدي لسُكناه كان يسكنه أيضاً - وبشكل متعمد - الصديق الأردني القديم تحسين الفواز.

Twitter: @ketab_n

بعد اللقاء الأخير في عمان، لم تُتح ظروف كثيرة لقاء الصديقين مرة أخرى، إلا لقاءً عابراً قبل سنتين - وبالمصادفة - عند الساحة الأمامية المقابلة لباب الملك سعود.. أحد أبواب المسجد النبوي الشريف. في ذاك اللقاء بُثت أشواق بينية كثيرة وتبُودلت معلومات قليلة عن أسطورة الذهب التركي؛ اللقاء - المصادفة - أظهر بجلاء لـمهند أن صديقه الأردني لايزال متشبثاً بآمال كبيرة بأن يجد، عبر الخرائط التي في حوزته، ما لم يجده مغامرون كثيرون قبله، وغذّى هذا الشعور لدى رجل الأعمال والسياسي السابق، اعتقاده بأنه يملك شفرة الشفرات لذاك الكنز المدفون في مكان ما.

الأمر برُمته كان مُشوقاً لـمهند في عمان.. وكذلك في المدينة المنورة، لكن مظهرية المفاجأة، واستعراضية استهجان تصديق قصص الأقدمين المشوشة، جعلت من الصعوبة، آنذاك، الاستماع لـتحسين الفواز وهو يعرض أفكاره في كيفية التأكد من صحة خرائط كنزه، والانتقال بعد ذاك إلى استخراجه. حدث ذلك في المرة الأولى، في الوقت الذي جعلت حالة مهند السعدي النفسية وقدسية مكان اللقاء الأخير، الأمر أكثر صعوبةً في إصغاء السمع لما أرادت ملامح الفواز الإفصاح عنه، ليس حول إعادة سرد تاريخ الكنز، بل لآخر محاولات رجل الأعمال الأردني في الوصول

Twitter: @ketab_n

إليه، كما استشعر مهند ذلك من مؤشرات كثيرة وردت في حديث صديقه في أثناء لقاء المصادفة في المدينة المنورة.

اليوم التالي لوصول مهند السعدي وعائلته إلى تلك المدينة التاريخية الاقتصادية التركية، شهد عناقاً حاراً، كالمعتاد، بين الصديقين السعودي والأردني، في ركنٍ من أركان البهو الفخم للفندق الإستانبولي الشهير.

هذه المرة لم يكن اللقاء ثنائياً، بل كان موسعاً إلى حد أن مهنداً نفسه تفاجأ من كثرة عدد المشاركين فيه، والذين لم يكن يعرف هوياتهم أو مَن يكونون، إلا بعد أن قدمهم تحسين الفواز له، وبعد أن طلبت عينا المغامر الأردني من صديقه السعودي، إبعاد النسخة الجديدة من زوربا اليوناني وكل من رافق مهند في رحلته التركية من حضور مثل هذا اللقاء:

ـ. مهند أقدم لك أصدقائي: عبد الله الفهد وجميل المسهبي، وطبعاً أنت تعرف الأخوين.. إنهما علمان اقتصاديان في بلادك! وأقدم لك أيضاً رَجُليْ الأعمال التركيين كنعان أوغلو سرسير وأجفت بوجار، أما الأخ الخامس فهو غسان المصري.. رجل أعمال من سوريا.

وبدون أن آخذ وقتاً قد يكون قد خصصته أصلاً لإجازة عائلية، أقدم لك تلخيصاً لمحاولاتي الجادة التي بذلتها بعد أن اجتمعنا

Twitter: @ketab_n

سوياً في عمان سنة 2001م وطلبت منك أن تنضم إلى أخيكم في اكتشاف كنـز تركي تم إخفاؤه عمداً من قبل قادة الحامية العثمانية في المدينة المنورة بين سنتي 1917 و1918م.

...تذكر يا مهند أنني قدمت لك حينها ملخصاً تاريخياً عن قصة هذا الكنـز، وأظهرتُ لك خرائط ووثائق تُثبت أن الحديث عنه لم يكن أسطورة ولا خُزعبلات تاريخية، كما استشعرتُ ذلك من ملامحك وتصرفاتك بعد آخر جملة قلتها لك حول الموجز التاريخي لذاك الكنـز الذي لا يقدر بثمن، للأسف لم تدعْني يا صديقي حينها أُكمل لك رؤيتي في كيفية اختبار حقيقة معلومات الكنـز التاريخية!

لقد كان وقع ردة فعلك عليَّ بالغ السوء، لكنني لم أستطع منع نفسي من المضيّ في الطريق الذي صممتُ على سلوكه: التنقيب عن سبائك الذهب التركية، مهما كلفني هذا من جهدٍ ووقت.. وحتى مال!

...بعد ذاك اللقاء أقمتُ علاقات عمل مع مواطنيك، هذين المحترمين، الجالسين أمامك يا مهند، لقد كان غسان المصري الذي أعرفه منذ زمن طويل هو الرابط بيني وبينهما وحتى بين الصديقين التركيين بعد ذلك؛ في خلال ساعتين فقط اقتنع عبد الله وجميل بما رفضتُ حتى مناقشته من قبل يا مهند، ولم يكن اقتناعهما مجرد تمرير فكري لقصة الكنـز التركي، بل ذهبا إلى أبعد

Twitter: @ketab_n

من هذا. . إلى مساعدتي، أو بالأحرى مساعدة نفسيهما، في التنقيب عن الذهب، هناك بين محطات توقف قطار الخط الحجازي، حيث أشارت إلى ذلك خرائطي الذهبية، عندما تقابلنا في عمان سنة 2001م، لكن يا للحسرة! ذهبت نتائج مغامرتي ومغامرتهما، كما أحلام غسان، أدراج الرياح.

. . . أتريد أن أشرح كيف جرت الأمور؟

وبدون أن ينتظر تحسين الفواز إجابة صديقه السعودي التي افترض أنها ستكون نعم واصل عرض قصة مغامرته الأخيرة مع الكنـز التركي:

ـ قبل أشهر زُرت دمشق في رحلة عمل، وهناك حددتُ موعداً لي مع غسان، وبعد أحاديث مُسهبة معه، وبعد أن علم بخيبة أملي الكبيرة إثر رفضك القديم، وألا شيء برغم ذلك منعني طوال السنوات اللاحقة من أن أظل مشغولاً بهذه التي يسميها البعض أسطورة، وأُسميها أنا حقائق مؤكدة، بعد هذا كله فتح لي غسان كوّة أمل. . قال لي: "هناك شابان سعوديان من طبقة رجال الأعمال الجدد في بلادهما، مهتمان - لسبب غير واضح لي حينها - بنفس القصة التي لا تفارق مخيلتك وفكرك."

وطلب مني غسان أن أتقابل معهما عندما يأتيان إلى دمشق بعد أسبوعين لإعادة بصيص الأمل، ذاك، الذي أشار إليه صانع الأعاجيب السوري. . مشكوراً!

Twitter: @ketab_n

...عدتُ مرة أخرى بعد خمسة عشر يوماً إلى دمشق وأنا عائد من زيارة خاطفة لإستانبول، وبالفعل تعرفت على الصديقين عبد الله وجميل ووجدت أنهما مسحوران بتلك القصة العجيبة عن الذهب التركي الذي أخفاه فخري باشا ومختار بك، وأنا أعتقد جازماً، أن الرغبة في الاستزادة من الثروات تحرك الجميع، لكن الصديقين اللذين يستمعان لي الآن، قد سيطرت عليهما، أكثر من ذلك رغبة الكشف عن الكنز الذي استطاع القائد التركي وكبير مهندسيه، التلاعب من خلالها بمخيلة المغامرين الذين لا يمكنهم تحمل غموض كهذا دون أن يختبروا مصداقية جوانبه.. وقيمته!

...بعد هاتين المقابلتين أرسل الصديقان السعوديان اللذان يجلسان أمامي الآن تأشيرة زيارة للمملكة لي ولغسان، وهناك أعدا لنا مفاجأة من الوزن الثقيل:

كل ما يطلبه المنقبون عن الكنز في الصحراء: سيارات دفع رباعي وعمال مُخلصون نهمون لتنفيذ رغبات سيديهما الكريمين، وأدوات حفر متقدمة، مع مجسات - لم أرَ مثلها - للمعادن الثمينة المحتمل دفنها في الأرض، ولأعماق بعيدة بمقياس ذاك الزمان.. وأكثر تقدماً حتى من (Metal Detector) وأكثر من هذا ميزانية مفتوحة لمغامرتنا!

وبين وادي الأثل ودار الحاج وإسطبل عنتر وبواط قضينا

Twitter: @ketab_n

أسبوعاً كاملاً نُنقب عن الكنوز التي أشارت إليها خرائطي.. طبعاً هناك تغير بفعل السنين لأسماء تلك المحطات القديمة لسكة حديد الحجاز، لكن التغير الأكبر، للأسف!، لحق بصدقية الوثائق التي أطلعتك عليها يا مهند في عمان سنة 2001م، وهنا كانت المصيبة والصدمة التي عشناها سوياً نحن الأربعة، بعد أسبوع من التنقيب الخطر والمتعب في صحراء بلدك: لم نجد شيئاً ألبته وكان هذا يمثل نهاية الآمال، لولا، وثائق وخرائط جديدة حصلت عليها أخيراً بعد رحلات مكوكية إلى إستانبول.

..لقد أعادت لنا المعلومات الجديدة الدافعية من جديد، وأنستنا أيام النَّصب والتخفي والادعاءات المرتبكة، كلما شرعنا ليلاً في التسلل داخل دهاليز التنقيب التي صنعناها وحاولنا قدر استطاعتنا، وأظننا نجحنا، ألا يراها أحدٌ، إلا فضولي ساقه حظه السعيد ليجرب ذكاءنا في استخراج الأكاذيب، ولتُلقي رُزم المال الذي له مفعول السحر في البلاد الشرقية عندما تتصادف وقوع مثل هذه المواقف الـمُربكة!

توقف تحسين لثوانٍ ليلتقط أنفاسه من جرّاء هذه الهرولة في عرض وقائع مغامراته المثيرة، ومن معه، وليعرف كذلك ردود فعلي عن تلك الجرأة المنقطعة النظير التي أعرف أن كُتلة عظيمة منها

Twitter: @ketab_n

تسكن قلبه، لكن ليس إلى ذاك الحد المتناهي إلى أسماعي أثناء إجازة صيفية غير عادية.

لحظات التوقف من أجل ملء الرئتين بالهواء، وقياس هول صدمات الأحاديث الغرائبية على الـمُستمع الـمُنتخب.. مرت بنجاح، أصابَ كِلا الدافعين، مما أغرى تحسين الفواز لمواصلة حديثه الذي لن يوقفه شيء على أية حال:

ـ كان الوسيط لمعرفتي بالوثائق والمعلومات الجديدة هو غسان نفسه، هذا الساحر لم يرضَ أن يخذلني الزمان ولا أن يُصاب قلبي بحسرة ألا مصداقية لذهب الباشا والبك.

...كانت ليلة مثل ليلة القدر، بعد شهر من الحفر والتنقيب الفاشلين اتصل بي غسان وقال لي إنه سيأتي إلى عمان وبرفقته معارف من تركيا، إضافة للصديقان السعوديان.. أي الجمع الجالس أمامك الآن!

ما الذي حدث وجعل دُعائي يُستجاب وكان قبل ذلك يقابل بالصد؟!

لن أدع يا مهند خيالك يذهب بعيداً!..إليك الإجابة:

...ما كان بحوزتي وشاهدته في عمان قبل أربع سنوات، كانت بالفعل وثائق وخرائط مختار بك كبير المهندسين، لكنها وحسب ما علمته مؤخراً من الأخوين كنعان وأجفت دلائل إرشادية

Twitter: @ketab_n

مُضللة وبطريقة مقصودة، من أجل إخفاء المكان الحقيقي لكنز الذهب التركي.

...أنت تذكر يا عزيزي كيف أن رسالة لا تقدر بثمن قد فُقدت - أو سُرقت - من مختار بك في أواخر شتاء عام 1917م، في أثناء عودته بواسطة آخر رحلات رُكاب قطار الحجاز، ويظهر، والله أعلم، أن هاتفاً في داخل مختار بك قد هتف به وبداخل فخري باشا قائد حامية الحجاز كذلك، بأن السرقة وإن كانت قد حدثت وعلم السارق، أو الذي وجدها، بكميات الذهب وطرق تخزينه، ولمن سيصرف، وعلى يد من؛ فإن إمكانية إخفاء تلك البوصلة الرسالة الإرشادية أمرٌ ممكن، عندما تُكتب وثائق وتُرسم خرائط جديدة بديلة، لا تنفي وجود الذهب بطبيعة الحال أو تُخبر أنه فُقد، بل لتُشير بشكل متعمد إلى أن السبائك وجنيهات الذهب التركي قد تم دفنها داخل عروق الرمال الحجازية، والتي يمكن معرفة مكانها بين محطات معينة كان يتوقف عندها القطار التاريخي. كان المقصود من تلك الوثائق الخديعة، تشتيت جهود الباحثين والمغامرين مثلنا، وإضاعة وقتهم الذي كان يمكن أن يُستغل في التنقيب عن المكان الفعلي للكنز الذي لا يشابهه كنز! أما أين يرقد الذهب العثماني؟ فتلك قصة أخرى يعلمها اثنان فقط: فخري باشا وكبير المهندسين مختار بك وبعض العمال الخُلص والقريبون جداً والذين زُج بهم، كما يبدو، في أتون القتال بين

Twitter: @ketab_n

القوات العثمانية وعصابات الثورة العربية ليموتوا فداءً للوطن، ولإسكات أفواههم الثرثارة إن لعب بعقولهم شيطان الكلام والادعاء!

. . .كنعان وأجفت حصلا وبطريقة مُثيرة على خرائط ووثائق تُثبت شيئين. .أولهما:

ـ إن ما كان عندي وأحسبه ثميناً من أوراق سبق أن حملها مختار بك ليست صحيحة على الإطلاق. . ثانياً: الوثائق الجديدة تُشير بشكلٍ غير ملتبس إلى أن المكان الذي لا يقدر بثمن سيأتي في مرحلة كشفية لاحقة، بعد اكتشاف دهليز دُست فيه خرائط أخرى تقود - مرة أخرى - إلى ذلك المكان الذي أحرق بحسرة مجهوليته قلوب الكثيرين من المغامرين؛ أما لماذا قام كلٌّ من القائد والمهندس الكبير بهذا الإخفاء والتلاعب المقصودين، فذاك علمه عند الديَّان وعند رجل آخر مهم ستتقابل معه، كما نحن، في حفلة سيُقيمها بنك فرنسي عريق لعملائه في منطقة الخليج والسعودية. . أتعرف متى وأين؟ هذه السنة يوم 14 كانون أول وفي فندق الجميرة بدبي، نعم، إنهم لا يلعبون، هؤلاء الناس أصحاب البنوك الأجنبية، قبل ستة أشهر يُخبرون عملاءهم أين سيقيمون كرنفالهم الإقليمي المعهود!

نقطتان مهمتان أود أن أختم بهما حديثي هذا:

Twitter: @ketab_n

الرجل المهم الذي سينضم إلينا نحن السبعة، بعد إذنك، قبل وبعد حفلة تعارف آخر هذه السنة، هو مواطنك أيضاً، وثري جداً، لكنه مغامر، أيضاً، جداً، ويقول إن لديه وثيقة أخرى، إن تطابقت معلوماتها مع التي حصل عليها كنعان وأجفت بطريقة سرية بعد أن سُرقت من مختار بك في دمشق بطريقة غير معلومة، ثم رقدت بهدوء عند السارقين وسلالاتهم طوال أكثر من ثمانين عاماً؛ إن تطابقت الوثيقتان فيا لفرح قلبي وقلوبكم ساعتها!! ويا لحظنا السعيد الذي لا يباريه حظٌ آخر!

...نقطة أخرى: حتى ولو كان الرجل المهم الذي ستقابله بعد أشهر ثرياً جداً، وحتى وإن كان الأخوان عبد الله الفهد وجميل المسهبي صاحبى نفوذ اقتصادي في بلادك فلن يستطع الجميع أن يقوموا بالتنقيب عن الدهليز الأول إلا من خلالك، فأنت صاحب وضع اجتماعي مميز وبطريقة أو بأخرى، بعد موافقتك بالطبع، سنتمكن إن شاء الله من ضرب المعول الأول دون أن يثير ذلك ضجيج السلطات عندكم، ولا همهمات الفضوليين هنا وهناك، وعند هذا الحد سأتوقف لأطرح عليك سؤالاً عريضاً مُتعباً، ومعه رجاء من معي ومن ستقابله: أترغب في أن نعود إلى نقطة الصفر خائبين وفي يدك أن ترفع الـغُمة وتدفع الحلم إلى التحقيق؟ ما الذي يُضيرك يا أخي؟ ما الذي ستخسره إن وُضع في جيبك ثمن آلاف السبائك الذهبية.. هي نصيبك؟ ثم ما الذي

Twitter: @ketab_n

عادت به إليك استقامتك.. وكتبك..ومحاضراتك..ومثاليتك؟ لا شيء، بل إنني - وعذراً في هذا - سمعتُ أن روايتك التي دفعت بها إلى المطابع كانت مشروعاً خاسراً مالياً ومعنوياً بالنسبة إليك؛ وحتى أن أخباراً - وسامحني في تطفلي - راحت تؤكد أن قلمك وأحبارك أضرا بك أشد الضرر.. لماذا كل هذا؟ يا سيدي، الناس في بلادك وبلادنا لا يعرفون إلا قيمة الذهب والمال والأصول؛ إنها ترفع الخامل وتشد أزر الجاهل، أما الصفحات وحتى لو كانت فيها قيمٌ، فلن تعود على صاحبها في أرضنا المشرقية إلا بنظرات الشك المتبوع بالإحاطة والعزل.. ولا أريد أن أقول هنا الأذى المختلف الأشكال.. فأهل الكُتب أدرى بمصائبهم وأنواع النكران التي تقابل بها أفكارهم!

والآن ما هو ردك مهند؟

أصلح الدكتور من جلسته المرتخية، ووضع كفيه على مسندي كُرسيه الوثير الذي جلس عليه طويلاً وهو يتابع بتشوق في ذاك الصباح، المغامرة المستمرة لصديقه الأردني: وعند تلك الحركة ظن الجميع أن رد مهند سيكون بِـ(لا) كبيرة كما توقع هذا مجال فكرهم وما سمعوه من أحدهم عن جوانب معينة من شخصيته، مع أملٍ خفيّ أن يتبدد توقعهم كما حدثتهم نفوسهم القلقة المتطلعة.. وفجأة جاء الجواب غير المنتظر:

Twitter: @ketab_n

ـ غداً صباحاً وفي الموعد والمكان نفسيهما ستتلقون ردي.. وأعتقد بأنه سيكون.. إيجابياً!

* * *

ساعات كثيرة مضت بعد ذاك الاجتماع الغريب والمثير، ومهند ومعه عائلته لا يتركون أثراً ولا معلماً تاريخياً في عاصمة بني عثمان القديمة إلا وزاروه، مع مرور لاحق لأسواق تلك المدينة الموغلة في عراقتها؛ وقبل منتصف الليل بقليل كان الجمع العائلي قد استنـزف طاقته وأخلد لنومٍ عميق.. عدا ربهم الذي راح يكتب كعادته التي لم يتخلَّ عنها يوماً مذكرات يومه، تحت نور مركز على منضدة مقابلة لشُرفة غرفته المطلة على المضيق البحري:

"...بعد أن سردت في مذكراتي ما ورد صباح هذا اليوم على لسان تحسين الفواز من قصص تختلط فيها غرائب الأسطورة وروح المغامرة، هأنذا أُسوّد بالحبر بقية الأسطر الـمُخصصة لهذا اليوم، لعلي ولأول مرة أجد في الكتابة نجدةً تريني كيفية الإجابة عن السؤال العريض والمعلق للأصدقاء القدامى والجدد.

...في كل مرة كنت أكتب رؤياي عن أحداث اليوم الفائت.. أعلق عليها.. أنقدُ نفسي..أكشف عيوب الآخرين..أسخر من الزمن وصناعه.. اليوم..اليوم - فقط - أخذتُ أعاكس عادتي

Twitter: @ketab_n

اليومية. .أو بالأحرى أنا لستُ أنا، فقد تلبستني شخصية أخرى، اردتْ روحي مُذاك الاجتماع الصباحي، مسوح المغامرين، طلاب الذهب الـمُختبئ، افتراضاً، تحت الأرض التي لطالما سكنتها الجماجم صانعة قصص الأمس الغابر، المليئة بالأسرار المكتومة. . سوى تلك التي تعلقت بالثروات والكنوز، عندها فقط لا يكف طلاب التفوق على الآخرين عن استباحة ما فوق الأرض وما تحتها. .وما عليها.

لم أكن أرغب، قطُّ، في أن أصطف وراء مثل تلك النوعيات من البشر، لا شيء في داخلي يشابههم، هذا لا يعني أنهم سيئون، أو أنني ومن أمثل أنقياء الطُهر، فتلك التنميطات لا تهمني وليس لها جاذبية عندي. . الأمر أكثر بساطة في التعليل: بصمات اليدين تختلف عند كل البشر. . وكذلك السلوكيات والأفعال. . لا شيء غير هذا!

مبرران اثنان قد يدفعانني غداً لأقول نعم للمنتظرين إجابتي: دافع الاختبار والاكتشاف الذي سنه لنا أبونا الأول عندما كان وزوجه في الجنة وحيدين. أما السبب الآخر فليس إلا الضيق من سجنٍ لا أعرف بالتحديد سُجَّانهُ. . مُعتقل جدرانه من مادة ظُلمٍ تكاد تسحق ضلوعي. . وسقفهُ مادة لزجة نارية، تكوي كل الهاربين من قولبة الأفكار والشخصيات والتاريخ.

يسألني طلابي في الجامعة - وكذلك الأبناء - عن كل شيء،

Twitter: @ketab_n

فتُلهمني معارفي المتواضعة بالرد الذي يُصيبه التوفيق أحياناً، إلا سؤالاً واحداً تتولد منه أسئلة أخرى لا أجد، دائماً، إجابة عنه: لماذا كان الظُلم من سمات الناس والأمم؟ أين العدل في كل ما يجري على هذه الأرض؟ وإن وُجد فمن الذي سيطبقه على نفسه قبل الآخرين؟

لا أجد الإجابة؛ لأن المحارب في أرض معارك الظُلم ليس عليه أن يرد على الأسئلة ويترك تلك المهمة للآخرين من النظارة أو بعد انتهاء معاركه، وكذلك أنا، لا أجد الإجابة فعلاً، مثلي مثل آخرين كُثر على مدار التاريخ عجزوا عن ذلك!

. . .وبعد! أليس من المبادئ الخالدة التي أعلنها الإنسان بأنها صنو إنسانيته مبدأ الاختيار وحرية فعله البشري؟ لقد اخترت في الماضي جانباً أظنه أخلاقياً، فما وجدت إلا إدماء قلبي وقلوب من أُحب، والحُزن، وكميات كبيرة من اللوم المُذل الذي يصرخ في داخلي: ألا اخترت، يا هذا، الصمت والعادية وعيش البُلهاء. . المحظوظين؟!

ما عليَّ أن اختار هذه المرة، وأنا متحزبٌ إلى حد التعصب لذاك المبدأ الخالد، دخول حفلة تنكرية، أرتدي فيها لباس القراصنة المغامرين، أو أضع على وجهي قِناع مصاصي الدماء؟!

. . .يا للمنظر الرائع الذي أشاهده الآن: طفلة صغيرة لا

Twitter: @ketab_n

يتعدى عمرها العاشرة تتحدى العاصفة الممطرة الصيفية التي بدأت قبل نصف ساعة، وعلى مدى نظري ليس ثمة إنسان على رصيف المضيق يقف، عدا تلك الطفلة ذات الجديلتين الطويلتين، إنها تمرح مُغتبطة بالمطر المنهمر غزيراً على شعرها وملابسها. . لقد اختارت الصغيرة اختبار قدرتها على الصمود واكتشاف المتعة، وتركت معرفة الأسلم للآخرين!

هل وصلت إلى إجابة مُرضية عن سؤال تحسين ومن معه؟

مع آخر كلمة كتبها مهند السعدي في مذكرات أول أيامه التركية، أدركه غزو فيالق نومٍ ثقيل. وكان يبدو، وحتى وهو يصل إلى ما يشبه الميل القوي لقول نعم للمنتظرين في الغد لتلك الكلمة السَحرية منه، أنه لايزال يحمل في نفسه التردد القديم الذي يجلده كلما طرح عليه ما يناقض ضروب تفكيره وسلوكيات شخصيته؛ لكن وفي صباح اليوم التالي وجد أول المستيقظين من أفراد عائلة مهند الرجل وقد أقفل دفتر مذكراته وأزاحه جانباً، وأكب بوجهه، وهو نائم، على ورقة كبيرة أخرى رُسمَ في وسطها كلمة نعم بارزة، محاطةً برسوم تُشابه قضبان سكة حديد، وشكل من أشكال سبائك الذهب، ووجوه إنسانية عابسة وضاحكة. . إضافةً إلى رموزٍ كثيرة غير مفهومة!

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

فقـــــــد

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الزمان: 16 كانون الثاني/يناير 1919م.

المكان: أمام بيت عربي يقع بين باب شرقي وباب توما في دمشق.

* * *

إن لم يكن هذا هو التيه النفسي بعينه، فما عساه أن يكون؟

لا مكان في زوايا نفس مختار بك وهو يقف أمام بيت عربي عتيق، قيل إن زوجته فاطمة وابنيه منها شفيق وسعيد قد انتقلوا إليه مجدداً بعد أن سكنوا طويلاً دارهم في حي الميدان القديم، إلا ذاك السؤال السابق العريض، والذي تزيده مرارةً كل الوقائع والأحداث الصارخة بأن الشتات الداخلي أمام تلك الدار هو الذي يفرض نفسه في مثل تلك الساعة.. ولا شيء غيره!

كان كبير المهندسين - السابق - يتطلع وهو زائغ العينين مُمسك بيد صغيرته فايزة؛ إلى تلك التغيرات العظيمة المتلاحقة التي لامست كل شيء أحبه وتعلق به: المرأة التي أحبها عادت مرة أخرى إلى الأصل الأول.. التراب. والمرأة المُسنة التي أحبتهُ - على طريقتها - تعيش منفصلة عنه بعد أن طالبت بالطلاق إثر

Twitter: @ketab_n

هجرانه لها ولأولادها عدة سنين، بحجة الواجب الوطني ومساندة المقاومة العثمانية في المدينة المنورة! أما اضمحلال الدولة الـحُلم، حوزة الإسلام ورمز وحدة الشعوب الإسلامية، فتلك قصة أخرى - بحد ذاتها - تملأ القلب بالكمد والأحزان الثقيلة؛ وهنا سيتصاغر فقدان الأمان الوظيفي وستتضاءل المكانة الاجتماعية في نفسه، أمام الكروب السابقة الماثلة أمام عينيه الآن، أو التي كان يسمع عنها قبل ذلك.

ابنته فايزة ذات الحادية عشرة، استمرت بيدها الواهنة المرتعشة ممسكة ذراع أبيها المذهول من التعاقب السريع للمتغيرات الخاصة والعامة؛ لم تهمس ولم تسأل الرجل العجوز، والباقي الوحيد من عائلتها الصغيرة؛ عن تلك الأشياء التي يقف أمامها الآن فاغراً فاه وقد قفزت دفعة واحدة لشاطئ الحياة الآخر الذي لا يحبه.

شرع مختار بك مرة أخرى في طرح أسئلة عديدة على نفسه مع معرفة أن الإجابات ليست سهلة ولا مُتيسرة:

من كان يصدق أن شوارع الشام تعجّ في لحظات ذهول مختار بك تلك بجنود الـحُلفاء الكفار بدلاً من الجنود العثمانيين الموحدين؟! ومن كان يدور في خلده أن فاطمة صبري أوغلو ستكون زوجةً - على كِبر - لشخص آخر غير مختار، وأن أبناء كبير المهندسين السابق، العثمانيين يعاشرون وتحت سقفٍ واحد من

Twitter: @ketab_n

يحاول ملء فراغ الرجل الشهير الذي تركهم وأمهم من أجل نزوة حبٍ تطاولت كثيراً؟! هل وصل قطار الحياة إلى محطته الأخيرة حاملاً رجلاً محطم القلب تفترسه الحيرة والوساوس؟!

ألم يكن فخري باشا مُصيباً في يومه المديني الأخير، وهو يُلِحّ في معرفة الحكمة فيما يجري في هذه الدنيا، من مظاهر اختلال العدالة في السعادة.. والانتصار؟!

لَكَم تغيّرت الأمكنة وما تحتويه من البشر، ولكم تغيرت مفكرة الأزمنة التي يُكتب فيها الآن أسماء إمبراطوريات جديدة وصانعوها، بعد أن مُحيت الرموز القديمة وأصحابها!

هبات هواء كانون الثاني الباردة التي تغزو الشام دائماً في مثل هذا الوقت، والآتية - كما يقول السكان المحليون - من الأناضول، هذه الهبات أيقظت بقشعريرتها مختار بك من خوائيات إدراكه عمق المتغيرات من حوله، وكانت أولى علامات تلك اليقظة الإجبارية، طرقاته المتباعدة على باب المنزل الذي سبق أن قيل له إن زوجته السابقة وأبناءه يسكنون فيه، ولأن الإجابة لم تأتِ من داخل الدار رغم انتظار مختار بك وابنته الصغيرة لها مدة طويلة، تقدم أحد السكان القاطنين في الجوار نحو الرجل وصغيرته عارضاً المساعدة، بعد أن لفت انتباهه - وآخرين - مرور الطارق المذهول والـمُتعب عدة مرات أمام بيوت الحي، ثم توقفه غير القصير أمام منزل سميح عبد الملك المعلم الثري والتاجر الدمشقي المعروف،

Twitter: @ketab_n

قبل محاولته العبثية المتكررة اللاحقة، لأن يفتح له أحدهم ممن يهمه أمره، كما يبدو، باب ذاك المنـزل الشهير المعروف سُكانهُ لجميع الجيران تقريباً:

ـ هل أتمكن من مساعدتك سيدي؟

أجاب مختار في الحال وكأنه ينتظر مثل هذا السؤال الـمُنقذ:

ـ أعرفك بنفسي: أنا مختار إسماعيل كبير مهندسي الدولة التي كانت حاكمة في هذه البلاد، وقيل لي إن هذا المنـزل يسكن فيه ابناي شفيق وسعيد: هل ما قيل لي صحيح؟ ولماذا لا أسمع رداً على طرقي للباب من الداخل؟

إبتسامة سريعة ارتسمت على وجه الرجل الذي بدا وكأنه يفاجأ بما سمع:

ـ أهلاً وسهلاً يا بك سمعنا الكثير عنك بعد انتقال الوجيهين شفيق وسعيد إلى هذا المنـزل. .مع أمهما. كان المحترم سميح بالغ الاعتزاز باقترانه المتأخر جداً بوالدة ابنيك الكريمين. .أتصدق: مضى على ترمله عشرون عاماً ولم يتزوج حتى مع حث الكثيرين له على هذا؟ شيء واحد دفعه إلى ما أعرض عنه تماماً في السابق: أن السيدة فاطمة وابنيها يحملون أشياء من تاريخك! أنت يا مختار بك تمثل للكثيرين ما لم تستطع محوه الثورات على دولتك السنية

Twitter: @ketab_n

وما لحقها من تغيرات سياسية واجتماعية. سميح بك من هؤلاء الذين يحملون لك وللماضي الذي تمثله مشاعر الاعتزاز والفخر، بالرغم من مرارة تعاملكم المجحف مع محبيكم قبل أعدائكم، ولهذا مد يده وكل شيء يبتعد عنكم وعن كل ما يتعلق. .بتُركيا والأتراك!

. . .الغريب يا بك أن المحترم سميح يأتي على ذكر أعمالك الهندسية التاريخية البارعة أكثر من الوجيهين شفيق وسعيد! رغم أن الأبناء عادةً يفخرون بإنجازات الآباء مهما كانت صغيرة، ولا أظن أن ما قمت به يا بك قليل في ميزان التاريخ. . وخاصةً سكة حديد الحجاز التي مثَّلت الكثير للمسلمين والعرب. .أنا مثلاً كنت ممن استفاد من ذاك الخط العتيد، لقد حملتُ بفضله مسمى الحاج خالد بدلاً من المعلم خالد. . الحمد لله!!

كل ما ورد في حديث الحاج لم يكن مُهماً لمن سبق أن حمل لقب كبير المهندسين العثمانيين، لا التفخيم للاسم والإنجازات، ولا موقف الثري سميح منه ومن دولته السنية التي تهاوت، ولا حتى شكل العلاقة بين الزوجة السابقة والزوج الحالي؛ ما شد انتباهه أكثر هو تلك التلميحات التي وردت بشكل غير مقصود في سياق حديث الحاج. .تجاهل الابنين للأب وما يمثله لهما ولغيرهما!

Twitter: @ketab_n

في تلك اللحظات بدأت قطرات من المطر في التساقط، بينما كانت زوابع الرعد تصم الآذان، مصحوبة بتيارات هوائية عاصفة، لكن مؤثرات المناخ المحيط لم تكن كلها كافية لإعادة مختار بك إلى حالة المواءمة التي يصنعها الإنسان عادةً للخروج من متناقضات الحياة: ما يفترض أن يكون، وبين الواقع الـمُعاش، بين المثاليات وبين أفعال وردود أفعال البشر ممن يخضعون لقهرية أبعادهم، بين ما يُبذر في تربة يوميات الحياة، وبين الحصاد اللاحق لتلك البذور المعطاءة أو الشيطانية.

تزايدت كثافة الأمطار واشتدت سرعة الرياح، وعندما فطنت الصغيرة فايزة أن والدها لن يخرج من جُب أفكاره التي لا تعرف ماهيتها ولا إلى أي تخوم ستنتهي، شدت بعطف كُم معطفه الشتائي وهي تقول:

ـ بابا: أشعر ببرد قوي وجوع أقوى!

هزت تلك الكلمات الحاج خالد وجعلته يتذكر واجبات الضيافة المعروفة عند المشرقيين، وسوء تقدير إقران التبجيل لشخص محدثه، مع مستلزمات الإكرام والترحاب الذي اعتاده الناس هناك:

ـ أنا شديد الأسف يا بك تفضل أدخل منـزلي.. بيتك الثاني، إنني الجار الثالث لـسميح بك..تفضل وشرّفْ دار مُحبكم،

Twitter: @ketab_n

إنني ألاحظ أن الصغيرة ترتعد من البرد وتحتاج لعناية خاصة من أهل بيتي، هلّا منحتني تلك الفرصة لأقوم بخدمتكم، ولتتذكُر جدران منـزلي أنها قد ضمت يوماً مختار بك كبير المهندسين شخصياً؟

وصلت كلمات الحاج خالد المليئة بالمجاملة والتعضيد إلى مسامع مختار بك بعد وقتٍ لا يمكن قياسه زمانياً، عندها أدرك العثماني المشهور بأن ابنته الصغيرة في حاجة هي الأخرى لكل شيء في أوقات الأزمة التي يعيشها - عدا - حالتي الذهول والانكسار النفسي اللتين ظهرتا جلياً على ملامحه وتصرفاته. وحال انتهاء آخر جُملة نطقها الدمشقي المسكون بمحبه وما يحمله من رموز ذاك الواقف ساعتها أمامه، كانت حالة تشوش الوعى قد بدأت في التلاشي البطيء للـبك الذي لم يكن يصدق أنه في يومٍ ما، سيشهد صعوبة ترتيب أفكاره، وإعطاء إجابات وأحكام واضحة وقاطعة لمحدثيه أو ما يعرض عليه!

قال مختار وقد استعاد شيئاً من توازنه النفسي:

ـ أنا شاكر لك يا حاج. .لكل معلومة أو مساعدة أو إطراء سمعته منك. .شيء واحد يُزاد في معروفك الذي غمرتني به: هلّا أرشدتني إلى خان نظيف أقضي فيه عدة أيام حتى أتدبر أمري؟

كسا الاندهاش ملامح مُحيا الحاج خالد وهو يردد:

Twitter: @ketab_n

ـ كلا.. يا بك هذا غير معقول أتبيت في خان وبيوت مُحبيك الكُثر تتمنى شرف ضيافتك؟! بيتي هو بيتك، المحترم سميح سيتواجد في إستانبول لعدة أشهر أخرى لإنهاء بعض المعاملات التجارية التي تأثرت من جرّاء الحرب، وفي هذه الحالة إن رغبت في مقابلة ابنيك اللذين يصحبانه مع والدتهما، فلن يكون هذا مناسباً لمقامك في اختيار خان كمسكن حتى يعود الجميع من رحلتهم الطويلة.

أجاب مختار وهو يحاول تحاشي إظهار ضيقه:

ـ ألف شكر لك يا حاج خالد، أنا لن أبقى إلا لأيام ثلاثة في دمشق وأغادرها إلى إستانبول، ولن أعرف الراحة إلا بعيداً عن طقوس الضيافة ومجاملاتها.. كثر الله خيركم أيها الكُرماء!

لم يرغب الحاج خالد في أن يستمر النقاش غير الـمُجدي مع تُركي صعب المراس ذي أنفة واعتزاز بالنفس مثل مختار بك خاصةً أن الطقس ينذر بمزيدٍ من العواصف الماطرة؛ لذا فقد أسرع في اختيار هذه الكلمات:

ـ موفق أينما حللت يا بك وتَذكَّر أن لك في القلوب، قبل المنازل، مكانة.. أي مكانة..! آه نسيت! بين باب شرقي وباب توما وخلفهما هناك خانات نظيفة، وهناك أيضاً خانات، لا بأس

Twitter: @ketab_n

بها، في الشاغور، وهناك ستستعيد ذاكرتك يا بك، بالتأكيد، تلك الأمكنة بعد دقائق من المرور السريع عليها.. هل تسمح لي بمرافقتك حتى تختار الخان المناسب؟

حمل مختار بك حقيبتيْ سفره وهو يتمتم بكلمات شكر سريعة؛ بينما راحت ابنته الصغيرة تحاول إدخال جسمها الضئيل داخل معطف والدها تفادياً للرياح الباردة والمطر الذي أخذ يشتد هطوله.

في خان متواضع يتوسط بيوت أقليات مسيحية ويهودية تعيش في دمشق منذ أزمنة طويلة، راح مختار بك بعد أن اختار حجرة غربية وتناول مع ابنته حساءً فاتراً وقليلاً من الجبن والزيتون، يفكر فيما آلت إليه مصائره وأقداره..سأل نفسه أولاً وهو ينظر لابنته فايزة قبل أن يستغرق في تأمله الداخلي الطويل:

" من أين أتى كل هذا الكم من الأحزان والألم في عينيها؟ من الواقع.. أو من أبيها؟!

من أين يأتي لكلينا هذا الكم من أحاسيس اليأس والكآبة والفقد؟.. من ظروفنا..من اختياراتنا..من كل هذا وذاك!

أهكذا تنتهي خواتيم من يظنون أنفسهم محاربين من أجل قضاياهم الكبرى؟.. التاريخ يقول: نعم بلا استحياء، لكن ما هي القضايا الكبرى التي نزعم أننا نذود عنها، حتى نرى أنفسنا نختار

Twitter: @ketab_n

خاناً عتيقاً لا يميزه عن غيره إلا أن روائح الحيوانات وروثها من حوله غير نفاذة؟!

لقد ساعدنا ونحن نعمل في قطاعات السلطان المختلفة على استمرار حياة رجل مريض أذاق المحيطين به قبل أن يمرض الأمرين. قفزنا على مسارات التاريخ الصارمة التي لا تكذب ولا تلين، محاولين إيقاف تلك المسيرة أو حتى انعطافها قليلاً قبل أن تواصل تقدمها للأمام وهي تدهس من شاء حظه، أو تقديره، أن يكون في المكان غير الصحيح والزمان الخطأ.

ثم ما هي قضايانا الصغرى التي نزعم أنها أورثتنا التطيرّ والكمد؟

ألم نعذب آخرين مُرسلين لهم باقات الشوك بدلاً من تلك الزهور التي تطلعوا إلى أن يتسلموها منا نظير سنوات الحب والعطاء.. وإن على طريقتهم؟!

...يا لحاجتي الآن - أكثر من الصغيرة فايزة - ليد حانية تُلامس كتفي إلى أن يشاء حزني المفارقة والابتعاد! أأكون شديد الطمع إن أنا قلت: إنني محتاج لنصف مواساة من تلك التي كنت أحصل عليها في خوالي الأيام، كلما ادلهمت الوقائع من حولي وأنا مُعتكف في محراب حب ناجية.. وغيرها؟

...أشعر بالحرمان من العطف.. يعصرني الفقد.. مؤلمة

Twitter: @ketab_n

قشعريرة الخذلان.. لكن ألم تزُر تلك الأحاسيس نفسها فاطمة خاتون وأنا أتنكر لحبها الذي لم أشعر به حقيقةً يوماً؟

...الكون لا يدور فقط، مصائر الأمم كذلك.. ومشاهد موجات التعامل البشري المتداخل بعضها بالبعض الآخر.

"...مَن منا أكثر حُزناً يا فايزة؟

مَن منا أكثر شعوراً بالفقد يا صغيرتي؟!"

أنهى مختار بك تقريع ذاته وجلدها، ولم تكن هذه النهايات بأفضل من البدايات؛ فقد بقي الغيظ من الدنيا كما هو، والحزن من الأقدار والاختيارات، على حدٍ سواء، كما هو.

وفي لحظة من الزمن داهم كبيرَ المهندسين خاطرٌ غريب: "يقولون إن الاستحمام يُعيد للإنسان جزءاً من عافيته النفسية والعصبية، سأفعل ذلك لعلي أجد سلواناً، ولو ضئيلاً، يترجم زعم القائلين إلى فعل."

نزع مختار بك ملابسه وراء ستارة حجبت بينه وبين ابنته، ثم وضع كومة تلك الملابس وفوقها طربوش رأسه وحزام جلدي صدئ أمام الصغيرة، بعد أن أكثر من التنبيه عليها أن تراقب تلك الأشياء التي يعلوها الغبار ويُشتم منها رائحة العرق البشري النتن.

عشر دقائق فقط عاد بعدها البك بعد أن سكب عليه ماءً ساخناً في حمام يشترك فيه كل نزلاء حجرات الخان القديم، ليجد ابنته

Twitter: @ketab_n

فايزة وقد امتلأت عيناها وملامح وجهها بالفزع والرعب العميقين، وقبل أن يسألها عن حقيقة ما حدث لها، قالت بعد أن حاولت مجهدة إيجاد الكلمات المناسبة لوصف ما جرى لها:

ـ بابا: لقد جاؤوا دون إذن ليأخذوا..

ـ ليأخذوا ماذا؟ من هم؟

أجابت الصغيرة وقد استمر خوفها من الذي حدث وسيحدث:

ـ غُرباء سرقوا الكمر فقط.. بابا!!

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

بين النُخب

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الزمان: 14 كانون الأول/ ديسمبر 2005م

المكان: حفل استقبال أقامه بنك فرنسي عالمي لعملائه على شاطئ فندق الجميرة في إمارة دبي.

* * *

"يا إلهي ما الذي جمع كل تلك الأطياف البشرية في هذا المكان؟ أكُلهم من عملاء البنك الفرنسي الشهير؟ ما هو القاسم المشترك بين المشاهير من رجال الأعمال والمطربين؟ بين رؤساء التحرير وبعض علماء الصحوة الذين تحولوا للنقيض؟! ما هذا الرابط الذي يجمع المستشارين الشرعيين للبنوك وأصحاب القنوات الفضائية الطربية، أو بين الموظفين الكبار السابقين في وزارات وهيئات المال والاتصال الخارجي، وبين من يمتهن بيع الشعر والرواية والقصة؟

تناقض لا يمكن فهمه.. حلقة أخرى تضم المُهرّجين المُضحكين المُثيرين من خلال روحهم المرحة، تقف إلى جوار حلقة أخرى من وسطاء الأسواق المالية وأغنياء الحروب!

Twitter: @ketab_n

يا للدنيا العجيبة التي هيأت الظروف لإقامة وسائط تعارف بين طبقة جديدة من سيدات الأعمال ورجال معروفين في حقل الرياضة وأنديتها!!"

هجمت علامات التعجب والتساؤل مع أخواتها من محاولات الفهم والتمنطق، على كل جزئيات عقل مهند السعدي الذي راح لدقائق وبعد استقبال حافل مُترف اختص به شخصه عند حافة شاطئ الخليج، يحاول استيعاب صورة الابهار الكلية التي يمثلها المتجمهرون أمامه: هناك أهل العلم الشرعي وأرباب السياسة، والمال، والفن، والإعلام.. والمتسلقون الجدد على جدران الثروة والطفرة الخليجية الجديدة!

أصلح مهند السعدي من قيافة ثيابه العربية بعد أن عادت له شيئاً فشيئاً قدرته القديمة على التحليل والربط بين الأشياء المتنافرة ظاهرياً، وترافق هذا مع تقدم سيدة أربعينية جميلة مفرطة الأناقة باتجاهه قائلة:

ـ أهلاً دكتور لقد أوصانا الشيخ بندر السعد بجنابكم كثيراً، وقد طلب مني شخصياً أن أكون في استقبالكم، وأن أكتفي حسب طلبكم بمناداتكم بلقبكم العلمي دوناً عن اللقب الاجتماعي، وحسب علمي فسيكون بيننا الشيخ بعد نصف ساعة من الآن وبمعيته أصدقاء لك وله.. فلا تقلق. الجمع من طاقم استقبال

Twitter: @ketab_n

البنك سيكون في خدمتكم، اختر حضرتكم أي تجمع يروق لك من عملائنا لتنضم إليه، وسيأتيك النادل في الحال بتشكيلة من المقبلات والمشروبات الباردة لتختار منها ما تشاء.. وعلى الرحب والسعة دائماً.

قالت موظفة البنك الفاتنة تلك الكلمات وهي ترسم ابتسامة سريعة على محياها قبل انسحابها للترحيب بقادمين جُدد لحفلة البنك الباذخة.

أما مهند السعدي فقد اختار أول حلقة من المحتفلين تقف على يمينه، وكانت تضم مجموعة من المعتزلين للعمل الحكومي في قطاعات مختلفة، إضافةً إلى نُخب حكومية مستمرة حتى الآن في أداء أعمالها الوظيفية. كل هؤلاء كانوا من الخليجيين والسعوديين، وقد رحب بعضهم بالقادم الجديد المعروف لديهم كشخصية عامة تشارك بكتابة المقالات الأسبوعية في الصحف المحلية، والأهم أنه كاتب الرواية الحدث التي فاقت شهرتها الآفاق بعد إيقاف المؤلف نشرها وتوزيعها!

راح هذا البعض يُعرف الباقين بـمهند السعدي وبالعكس، وتبادل كثيرٌ منهم بطاقات التعريف بالشخصية، مع كلمات مجاملة كثيرة سمعها مهند عن جمال الأسلوب الذي كُتبت به روايته، وطرافة موضوعها وتشويقه.

Twitter: @ketab_n

بعد تلك اللفتات الـمُشجعة وأحاديث أخرى عن الطقس، وأخبار الاقتصاد، وتدوير إشاعات كثيرة عن مغامرات المشاهير العاطفية، وحركات الأسبوع الـمُقبل، المحتملة، للبورصات الخليجية، بدأ مهند السعدي يفطن إلى أنه يقف بين أشخاصٍ كانوا مهمين جداً في ميادين العمل الحكومي في بلاد إقليمه الخليجي، وها هم الآن يُعدُّونَ من الأثرياء الـمُشار إليهم بالبنان، بعد أن انسحبوا مختارين أو مُجبرين من وظائفهم؛ وكل ذلك ليس مهماً - حسب ما حدّث مهند نفسه به - قياساً بالإرث الثقيل السلبي الذي كبل بلادهم من جرّاء أخطائهم السابقة.

السياسة الخليجية لم تكن في رأي مهند في أحسن حالاتها وسنوات خمس من القرن الحادي والعشرين تمضي سراعاً، لقد عزلت تلك الأخطاء - التي لم تكن كلها من عنديات زملاء الحفلة - بلاد الخليج عن التأثير الإيجابي الذي كان لها في السابق، ليس على القضايا الكبرى للأمة العربية فحسب، بل على المحيط الإقليمي الذي كان يدور في فلك بعضها؛ وتسبب هذا العزل الاختياري في نشوء قوى أخرى تحاول استغلال غياب هذا البعض، لتحول تلك القوى تبعاً لذلك إلى مراكز استقطاب لأتباعها أو لأيديولوجيتها المذهبية والفكرية، وبالتالي فإن مراكز القرار

Twitter: @ketab_n

العالمي ستتفاوض آجلاً أو عاجلاً مع القوى الإقليمية الجديدة الناشئة المدعومة بفائضات البترودولار، إضافة لهيجانها العقائدي.

لم يعد لبعض دول الخليج - كما راح مهند السعدي يؤكد في داخله - من تأثير على الاتباع المفترض وجودهم، بالرغم من قدرتها على ذلك، وبالرغم من أن التكوين القديم لأهم تلك الدول كان يعتمد أصلاً على تصدير الفكرة وإشعار الآخرين بالقوة الوليدة الجديدة الحامية لتلك الأفكار السلفية العذرية القديمة.

لقد بدد المؤثرون في السياسة الخليجية، والذين يقف بعضهم أمام وبجوار مهند في تلك الحفلة الساحرة، عوامل تأثير بلادهم على المحيطين، القريب والبعيد؛ لتأتي بعد ذلك مؤلمات الإرهاب الديني الداخلي لتسكُب مزيداً من الرغبات الإضافية في كؤوس العُزلة المختارة، والتي يظن شاربوها أن مزيجها السحري سيبعدهم عن إثارة فُرقاء الأزمات في منطقتهم، لعل في تلك المسكنة منجاة في أرجاء لم تعرف إلا الاستقواء على الضعفاء المترددين، والذين يظنون أن الحياد السلبي أو القوة الاقتصادية غير المدعومة بالحركة السياسية النشطة، والتمدد العنكبوتي القوي بكل أشكاله - حيثما يصل تأثير هذه الدولة أو تلك هنا وهناك - هو طريق السلامة والأمان!

Twitter: @ketab_n

الكاتب وأستاذ الجامعة استمر في طرح الأسئلة الجوّانية وأعقب بعد آخر جُمل قالها:

"السلامة والأمان..! أليست تلك الكلمات هي التي قيلت لنا ومئات من شبابنا الخليجي يُغرون من قِبل أغنياء يحضرون الآن هذه الحفلة - وكانوا قبل ذلك نافذين في ميادينهم الحساسة - بالسفر إلى بلاد الأفغان بحجة محاربة الشيوعية الملحدة ونُصرة الإسلام؟..ثم ماذا كانت النتائج؟ إرهاباً مؤسساً في بلاد الأفغان، نشر رعبه في كل العالم.. بل وحتى في البلاد الحاضنة بدون قصد، والراغبة الآن في السلامة، والتي سبق أن ساعدت بحُسن نية قاتلة، العالم الحر، على تضخيم صناعة قنابل الكلمات والبارود والأجساد المرتدة إليها!"

"لا تستحق بلادنا الطيبة ما حدث لها ويحدث" هكذا علق مهند السعدي على كل الأسئلة والأجوبة التي عرضها داخله، وهو يغادر حلقة ديناصورات الموظفين السابقين الأثرياء.إلى حلقة أخرى من المدعوّين والمرصعة بالمستشارين الشرعيين للبنوك المحلية والعالمية العاملة في دول الخليج، والذين يقف بجوارهم أصحاب محطات فضائية هدفها الوحيد تسلة وتطريب الأعّيُن والآذان العربية!

لم تكن هناك معرفة مباشرة بين مهند السعدي وأحد من

Twitter: @ketab_n

المتحلقين ممن انضمَ لحلقتهم، لكن دقائق قليلة لاحقة كانت كافية لإتمام تبادلية المعرفة الأولية بين غالبية التجمع ذاك وبين القادم الجديد.

وبالرغم من الأحاديث البينية الـمُحتدة اللافتة، والتي يرى من وقتٍ لآخر منها قبساً من الإثارة العقلية النادرة، إلا أن المنضم للتوّ لتلك الحلقة أخذه سرحانه - وهي عادة ملازمة لشخصيته - إلى الضفة الأخرى من التفكير، بعيداً عن ادعاءات المحيطين به وملاحم أعمالهم.

...حديث النفس ذاك كان يقول:

"مَن الذي يخدع الآخر؟ هؤلاء المشايخ الذين يرغبون في أسلمة البنوك الربوية الشهيرة، أم أن الدُهاة راسمي سياسة المصارف العاملة في منطقتنا قد فهموا لعبة الأسلمة وأتقنوا الخدعة النفسية للعملاء المحليين الـمُكتنـزين سيولة نقدية، عبر تقديم خدمات إسلامية مصرفية مُبتكرة من قِبل علماء أفاضل، رغبوا في إبراء ذمم أفراد الأمة وهم يعرضون أنشطة اقتصادية أُطلق عليها تسميات إسلامية.. مثل: المضاربة..والمشاركة.. والتورق؟! أما كيف تُدار الأموال الإسلامية بعد ذلك، وأين، ومَن يستفيد منها؟ فتلك قصة أخرى ليس من المستحسن أن يُشغل العقل الإسلامي - البسيط الراغب في مصدر رزق حلال - بتفاصيلها وأسئلتها!

Twitter: @ketab_n

رغبة الإنسان في الترفيه، وخاصةً في منطقة محافظة يُضيقْ على الإنسان فيها حتى يصبح صيداً سهلاً لمن يقدم له أفيون اللهو الـمُخل البعيد عن سمو الذائقة، تلك الرغبة كان أسياد من امتطوا جيادها أصحاب المحطات الفضائية، الذين أراهم من حولي يعرضون على المشائخ أنفسهم فوائد الإشراف على استديوهات مجاورة لأماكن صُنع نجوم الفن ونجمات الطرب.. وكل ذلك حتى تتأسلم شقائق قنوات هنا، ومضامين برامج قنوات هناك، تُقدم ساعة إيمانية ضمن ساعات طويلة أخرى من السفه الـمُبدد لذاك الإيمان المهزوز، وبهذا يُعطي ما لله لله وما لقيصر لقيصر!!"

لم تنتهِ أحاديث المونولوج الداخلي لـمهند السعدي وهو يغادر حلقة مدعوين إلى حلقة أخرى مجاورة ضمت عدداً من مشاهير الغناء الخليجي، وآخرين ممن امتهنوا مهنة غريبة هناك: بيع الإبداع نثراً.. وشعراً! وبالفعل كانت تلك الفسيفساء البشرية المليئة بالغرائب محفزة بحق لأن يستمر الهمس الداخلي للسارح:

"من الغرائب المزدوجة أن يتكاثر فطر المطربين السام في كل أقطار الخليج وخاصةً.. هناك في البلاد التي يتخذها كل مسلمي الأرض قِبلة لهم، ونموذجاً للإسلام الأصولي عند بعضهم. أما الأمر الأغرب من هذا فهو أن "أهل المغنى" في تلك الديار نفسها يعتبرون من أثرياء القوم ونُخبهم! فلا وجود - مثلاً - لمسارح

Twitter: @ketab_n

الغناء هناك، ولا أنشطة فنية ثابتة يمكن أن تبرر قيد أسماء نجوم الغناء هؤلاء - الذين ينظرون إلـيَّ وأنظر إليهم الآن - في سجلات كبار عملاء البنوك العالمية.

. . .تفسير واحد لهذا اللغز الصعب لغير العالم بمجريات الحياة الاجتماعية في منطقتنا:

الوجه المتشدد الديني الذي يظهر للعالم الخارجي، لا يعكس حقيقة ما يجري في الأنحاء الـمُشار إليها بإصبع الاتهام بالغلوّ والتطرف العَقَديين، والدليل على هذا: حفلات الأنس الباذخة التي تقدم على شكل مناسبات زواج، أو أعياد ميلاد تُقام في كل أصقاع العالم، أو حتى لا هذا ولا ذاك. . مجرد إمتاع الراغبين في إعادة ليالي الرشيد في بغداد العباسية، ولكن هذه المرة على الرمال العربية أو بجوار الشواطئ المسترخية برطوبتها على ضفاف الخليج القلق شرقاً، أو بحر الشُعب المرجانية الحمراء غرباً. وفي كل الأحوال فخراج مطر كل غيمة من تلك الليالي، الذي يُقدر بالملايين، يصبُ في أرصدة عملاء البنوك المحلية والأجنبية من ذوي الحناجر الذهبية والماسية. . والنحاسية.

وإذا كان مفهوماً، بتحفظ، أن يتغنى المطربون المحليون حسب هذا السياق، فلا منطق سوي يسوغ أن يشتري الأثرياء إبداع غيرهم لينسبوه لأنفسهم، بعد أن يخرج على شكل قصيدة مُغناة، أو رواية

Twitter: @ketab_n

تُقرأ، أو بحث تاريخي، وبعدها ستنتقل، بالتأكيد وبشكل آلي، إلى أرقام بنكية تتحول من أرصدة سارقي الإبداع إلى بائعي هذا الإبداع.. إنه تبادل منفعة في عصر الأسواق الحرة المفتوحة.. هذا كل ما في الأمر.. أليس كذلك؟»

مع طرح هذا السؤال الساخر ابتعد مهند السعدي عن حلقة أخرى من الحلقات التي راح ينتقد أنشطة بعض أصحابها، مع شك ثقيل مصاحب أخذ يُداهمه كلما توغل ليله الاحتفالي.. نعم شكٌ في مصداقية ما يفكر به.. ولِمَ لا؟ أليس للثراء، مهما كان مصدره ونوعه، إغراءٌ يُشتت بقايا التعفف لكل ما تمثله طقوس عصر الثروة والأثرياء الـمُعاش؟

هبت ريحٌ ندية قادمة من البحر، لتلفح وجه مهند مُعيدةً إياه مرة أخرى من عالم الرؤى الداخلية إلى حيث الواقع.. إلى الحقيقة التي تصرخ بأن تلك الجماعات المتحلقة في الليل الاحتفالي للبنك الفرنسي العالمي، هم الذين يمثلون وجه بعض بلاد الخليج الثاني بعد أن تكاثر في قلوب مُحبي البلاد الطيبة وجع المنظر البشع الإرهابي الآخر، لتروح تلك القلوب تبحث عن نصف الوجه الجميل، فلا تجد إلا نوعية هؤلاء وما تمثله قيمهم الحاضرة التي تلفُها الأسئلة المتداخلة!

Twitter: @ketab_n

لكن لا سبيل لـمهند والحالمين السُذج أمثاله إلا التعامل مع هذا الواقع وتلك الحقائق؛ ومن ذلك تجمع حلقي آخر اقترب أستاذ الجامعة والكاتب منه ليكتشف إلى أي حدٍ يتداخل في إقليمنا ما يسمى صنع المعرفة والخبر مع المال وأهله، بحيث لا يمكن الفصل بينهما، مع أن هذا هو الأصل وغير ذلك هو الاستثناء الـمُحاط بالأسئلة!

الدائرة من الواقفين المحتفلين كان نجومها بعض رؤساء تحرير صحف دول خليجية معينة، والذين أمضوا، كمراكز قوى مهيمنين في صحفهم المحتكرة لعرض الخبر والرأي والتحليل داخل بلادهم ما يقارب الثلاثين عاماً، صانعين بهذا ظاهرة محلية فريدة قلما تتكرر عالمياً: انتفاء تدوير مراكز الإشراف التحريري على الصحف على مدى عشرات السنين، إلى درجة تجعل المراقب يظن أن التوريث هو الأقرب إلى حل مشكلة إيجاد أهل ثقة، أمثالهم، بعدما يمرض أو يموت رؤساء تحرير كل العقود والعصور!

الديكتاتورية الصحفية.. وهو مسمى غريب اخترعه مهند السعدي وهو ينظر للحلقة الجديدة التي انضم إليها بسهولة؛ لأنه يعرف هذا البعض الديكتاتوري الممسك يومياً بصناعة ثلاثين صفحة من أنشطة، وغير أنشطة، بلاد إقليمه الجغرافي. هذه الاحتكارية

Twitter: @ketab_n

ليست غريبة عندما يفحص باحث كنه الظواهر، عن تقربها المثير لصُناع المال والثروة، والواقفين كتفاً بكتف مع زملاء مهدوا بشكل غير مباشر لطرق اقتناء المال السهل في بلاد الجميع.

داخل مهند أخذ يفسر حينها قاعدة اللوغاريتمات الإنسانية العجيبة التي لم تخطر على بال جون نابير[1] قط:

"حافظ رؤساء التحرير في منطقتنا طويلاً مثلهم مثل مؤسسات دينية ودنيوية أخرى، على بقاء تصور مُتابعيهم بأن الناس خُلقوا هكذا: ميسورين نوابغ، وفقراء أو متوسطي الحال، لم يستطيعوا فك لغز الثروات؛ هذا التصور لا يتوقف عند هذا الحد، بل يتعداه إلى التحذير من التفكير في طرح أسئلة حول بقاء تلك المعادلة كما هي، فذلك يُدخل المستفسر في لوائح المشككين في الحكمة الإلهية، وحتى في التصنيف الثوري الذي لم يخطر على بال طارح الأسئلة إطلاقاً. بدلاً من هذا يُقدم محتكرو الصحافة حلاً آخر أفضل وأبسط لانتقال أهل الطبقات إلى طبقات أعلى، ولن يكون هذا التقديم من خلال وصفات اقتصادية، بل عن طريق إسكات الـمُتسائلين عن الاحتكارات، والفساد الإداري المستشري، والخلل المشابه الذي يصيب كل القطاعات الاقتصادية. .من أبسط أنواع

(1) رياضي سكوتلندي مخترع المتواليات الحسابية عبر إضافة فرق ثابت مشترك إلى العدد السابق نفسه.

Twitter: @ketab_n

التجارة وحتى أسواق المال.. الوصفة المختارة لها تكملة: معرفة أسرار صناعة الهومرة[1]، على شرط البعد عن الإثارة وافتعال الضجيج الـمُقلق لراحة صناعة وصُناع المال.

من خلال هذا التسويغ القديم، الذي بدأ، بعد ثورة المعلومات ووسائطها والانفتاح على العالم، يتشكل في السنوات القريبة الماضية على شكل إتاحة فرصة للكُتاب حتى يطرحوا أسئلة هامشية - وعلى استحياء - عن الدين العام، والاحتكار، والشفافية المفقودة، والفساد الاقتصادي، وهيمنة أقطاب المال.

من خلال ذلك، أبقت الصحف المحلية، من خلال تسلط قممها، ماكينة صنع المال وأهله تعمل كما هي، ولن يكون عسيراً عبر هذه الطريقة أو تلك إسكات الضمير المهني وأخلاقيات المهنة، في بلاد محتاجة، وهي تنتقل من عهود الفاقة إلى عهود الغنى الأسطوري، إلى مُساءلة تحفظ لأهل تلك الديار الطيبة أخلاق الأجيال السابقة، وتحفظ كذلك ثروات البلاد من الضياع، حتى يبقى شيءٌ ولو يسيراً للأجيال الـمُقبلة!

...بعض رؤساء التحرير بحضورهم للحفلة الخليجية المترفة أثبتوا أنهم جزءٌ من نسيج اقتصادي تحيط به الأسئلة، والمورِّث،

---

(1) الهومرة أو الهاومير: مصطلحات تعني قوة التأثير المالي كقوة تسلط نوع من الأسماك على أنواع أصغر.

Twitter: @ketab_n

بمساعدة عوامل أخرى، بطالة، واعتماداً على مورد واحد، واستحساناً في زيادة ثروات البعض على حساب البعض الآخر دون صد هيمنة تلك الرغبات الخطرة.'

بعد محاولات مهند الجوّانية لفهم تلك المعادلة الاقتصادية الإنسانية المليئة بالغرائب، أنصت لما يُثبت ذاتية حقيقة فهمه السابقة.. سمع، مثلاً، رئيس تحرير يطرح على وجيه اقتصادي هذا السؤال:

ـ يُقال إن مدينة اقتصادية كبرى ستُقام في إحدى مدننا. هل لي أن أعرف ما تلك المدينة؟ ساحلية داخلية؟ يجب أن أعرف - أرجوك - قبل أن أضع قروشي في أراضي تلك المدينة الموعودة.. كم سيتضاعف في ظنك سعر الأرض المنزوعة لملكية تلك المدينة؟

حِوار بين قطبين: أحدهما إعلامي والآخر اقتصادي جرى أمام مهند، والاثنان يرسمان ابتسامة لم يرَ مثلها المستمع من قبل.. قال الاقتصادي للإعلامي:

ـ في الأسبوع القادم سيكون موعد الجميع مع قفزة كبيرة لأسهم كل شركات الخشاش[1] فلا تنس أن يكون لك من آخر هذا

(1) الخشاش كلمة متداولة في أسواق مال بعض الدول الخليجية وتعني الشركات الخاسرة أو التي لم تعلن أرباحاً.

Twitter: @ketab_n

الأسبوع نصيب من الفطيرة.. لقد قررنا هذا، ولم نخلف وعدنا - كما تعرف - من قبل!..على فكرة: أحد كُتابكم له لسان طويل، إنه يكتب للأسبوع الثاني عن تدمير البيئة الذي يسببه مصنع الأسمنت الجديد، وعن مخاطر تصدير الرمل المحلي المخصص للبناء إلى كل دول العالم، وكأنه لم يعرف أن زحف تلك الرمال خطر على البيئة التي يدافع عنها! إن لم يسكت كاتبك فلن تقرأ التوصيات في هاتفك الجوال مرةً أخرى.. دع الـمُزعج - كمحاولة أخيرة - يمر عليَّ في مكتبي وسيرضى!

تحاشى مهند وهو يودع حلقة تزاوج المال والصحافة، أن تتقابل عيناه بعيني رئيس تحرير سابق ولاحق لصحيفة واسعة الانتشار على الرغم من محاولة بعض رؤساء تحرير الصحف الوطنية مد جسور المعرفة بين الثلاثة، آملين أن يجد الراوي فسحة من الضوء النقدي في تلك الصحيفة المشهور لروايته الأولى، وعلى أمل أن يكون هذا - إن تم - تكفيراً عن التجاهل التام الذي قُوبلت به تلك الرواية من قبل صحفهم، والتي أقسموا أنهم وهم يتخذون موقفاً سلبياً منها، كانوا يتعرضون لضغوط لا قبل لهم بها، حتى وهم يعرفون ويعترفون بقيمتها الفنية.

لماذا تحاشى مهند ما يمكن أن يحسب له؟

في رأي المدعو - عرضاً - لحفلة تلك الليلة الخليجية المبُهرة

Twitter: @ketab_n

أن الصحيفة التي دُعمت كثيراً لتصبح دولية، انحازت للجانب الذي يقف دائماً منه موقفاً سلبياً.. جانب العولمة الاحتكارية، وسيطرة القلة على أكثر أشياء الحياة ضرورةً، إلى جانب تصوير الدولة العبرية وجيوش احتلال بلاد العم سام بأنها ليست خطراً على أُمته الصغيرة والكبيرة؛ إنه موقف مبدئي يراه كثيرون أنه أقرب للبله الثقافي ولجهل فقه الواقع، ويراه صاحبه ومعه آخرون أنه لا يقبلُ المفاصلة والتغيير مهما كان الثمن المقابل مُغرياً وكبيراً!!

"رائحة عطر شانيل النسائي الرائع الذي شممته في أول الليل الاحتفالي، ها أنا أتحسس وجود شخص الـمُتعطر به.. أين هو ليساعدني على الخروج من أزمة عدم التواصل مع محيطي هذا؟" طرح مهند هذا السؤال على نفسه وهو يأمل أن يأتي الجواب سريعاً، ومعه إن صحت مكانية صاحب العطر الشذيّ، أخبارٌ أكيدة عن قدوم من دعاهُ لتلك الحفلة التجربة، ومن كان سبباً للحضور أصلاً ليقرأ معه خرائط كنـز الراحلين، الذين ما انفكت أساطيرهم تستفز روح المغامرة المترددة في داخله.

السؤال وإجابته الأُمنية لم يظلا مُعلقين طويلاً، فها هي الفاتنة. موظفة البنك التي استقبلت مهند السعدي في أول الليل، تعود لتقف أمامه مرة أخرى وفي عينيها، قبل أن تتكلم، اعتذار عن

Twitter: @ketab_n

غيابين: غيابها عنه وهي المكلفة بالاهتمام به، بعد أن ظنت أنَّ تنقله بين حلقات المدعوين خير عزاء لتأخر أصدقائه. واعتذار - مُفترض - خارجٌ عن الإرادة لمن هو مُتلهف لرؤيتهم:

ـ إلى الركن البعيد ذاك الذي اختاره بعناية الشيخ بندر السعد سأقودك، حيث الجميع في انتظارك، مع رجاء مُلحّ منهم أن تقتصد في عتابك لهم عن تأخرهم الذي سيشرحون لك أسبابه؛ إنهم لا يتحملون نظرات العتاب التي تُطلقها عيناك.. مثلما أشاهدها الآن! بعد أن تُنهوا يا دكتور أحاديثكم سأكون في شرف وداعك.. مهما طالت تلك الأحاديث.. أتمنى لك وقتاً طيباً وماتعاً!

بابتسامة رضىً لألمحية تلك الفاتنة ولباقتها، ختم مهند فاصل الزمن الانتظاري بين ما يريد سماعه، وبين ما قالته محدثته وكأنها تزف له بشارة طال ترقبه لها.

قادت السيدة الأربعينية ضيفها نحو الركن الذي أشارت إليه، والملامس تماماً لمياه الخليج الساكنة، خلافاً لكل ما يدور من أنشطة إنسانية متداخلة على شواطئه؛ وفي الطريق للركن المختار أخذ مهند يُطالع تجمعات مدعوين آخرين لم يحالفه حظه - أو حالفه! - لأن ينضم إليها.

في الركن البعيد نسبياً استدارت مقاعد بامبو وثيرة، نهض مَن

Twitter: @ketab_n

عليها احتفاءً بالقادم الجديد المنتظر، بعد أن أشارت، بصورة خفية، فاتنة الاستقبال لهم بأن صاحبهم يترنح بين الهدوء الظاهري المصطنع والغليان الداخلي المكتوم.

..هناك كان الشيخ السعودي ومواطناه عبد الله الفهد وجميل المسهبي، إضافة للتركيين كنعان سرسير وأجفت بوجار، ومعهم كذلك السوري غسان المصري.. وتحسين الفواز، الذي فتح ذراعيه وبلل شفتيه الغليظتين كعلامتين متقدمتين لاستقبال مهند.. صديقه القديم.. الذي يحتاجه كثيراً!

احتضن مهند الشيخ بندر السعد أولاً ثم البقية، مع إضافات تحايا متنوعة أخرى لـتحسين، الذي بادر على الفور بالطلب من الـمُنتظر أخذ مقعده في صدر الجلسة القريبة من البحر والمضاءة بشموع عبقة برائحة اللافندر.

لثوانٍ قليلة ركز مهند السعدي نظره تجاه الشيخ، فوجده مخالفاً لهيئته العلوية التي يظهر على الناس بها في البرامج التليفزيونية الاقتصادية: عيناه جاحظتان، سُمرته واضحة، وشامات ودمامل كثيرة تزيد ملامح وجهه قتامةً وبشاعة، أنفه القصير ذو المنخرين الكبيرين يكاد يكون غير متناسب مع طول الوجه ونحافته، لكن الثراء عادةً، وكثيراً، ما يُخفي كل تلك الصناعة الـخلقية المتنافرة، ليبقى، فقط، في ذاكرة بعض الناس المبهورين بحياة أهل المال

Twitter: @ketab_n

والاقتصاد، أشياء كثيرة من خلائط الإبهار والانجذاب، والتي تُخفي، عند البعض، العيوب الخلّقِية وأحياناً.. الـخُلقية!

ساد صمت كُلي للحظات، قطعه تحسين فواز بصوته الجهوري قائلاً:

ـ قبل أن تأتي يا مهند كان الشيخ بندر يحاول إقناعنا بأن يأخذ حديثه الذي سيبدأ به معك، اتجاهاً آخر بعيداً عن الخرائط وتوثيقها، وهو الهدف الأهم والمهم الذي أتى بنا جميعاً إلى هذا المكان، على أن يعود لأصل الموضوع في وقت يتبع الدردشة التي يريد أن يقيمها معك عن الأدب والفلسفة والتاريخ والإنسان.. والرواية. نحن في حالة تردد حيال رجائه، وهو يأمل في بكرمك مقابل بخلنا بوقتنا ووقتك.. ما رأيك مهند؟

إبتسامة عريضة من مهند دلّت على موافقته ورضاه، الأمر الذي دعا الشيخ بندر إلى المسارعة في أخذ زمام مبادرة الحديث، الذي كأنه لم يكن وليد المصادفة البحتة:

ـ منذ زمن كنت أريد التحدث إليك يا دكتور، لقد تعرفت عليك من خلال الرواية الأولى وزادت معرفتي بك بعد قراءتي لروايتك الأخيرة التي شاهدتها معروضة في مكتبات بيروت، البارحة فقط.. كانت رائعة مثل سابقتها.. ولكن!

Twitter: @ketab_n

ـ وأنا سعيد بمعرفتك يا شيخ بندر. أنت علمٌ اقتصادي لامع، والكل راغبٌ في مقابلتك والتحدث إليك، وأما "لكن" الأخيرة فإنني شديد الشوق لتكملة ما بعدها!

بهذه الكلمات أجاب مهند على مداخلة الشيخ بندر الأولى، والتي أُردفت بالقول الثاني:

ـ قبل أن أوضح ما قصدته سابقاً دعني أسألك يا أخي مهند هذا السؤال المزدوج:

ما هي الأهداف التي أردت تسجيلها من خلال الروايتين.. وإلى أي مرمى؟

أجاب مهند:

ـ الإبداع الذي قد تدخل الروايتان في تنميطه لا يهدف لتسجيل الأهداف، هدفه أن تُقام مباراة شيقة ومحفزة وعادلة للجمهور، وأن تساعد النظارة على إبعادهم عن هموم ما وراء أسوار الملاعب.. ولو لسويعات.

قال الشيخ بندر هذا وهو ينظر للآخرين المشاركين في الجلسة المغلقة، وكأنه يستعين بآراء بعضهم التي - يبدو - أنها قريبة من هواه:

ـ قرأتُ الروايتين ويمكن أن بعض من يشاركنا هذه الخلوة قد

Twitter: @ketab_n

قرأهما كِلتيهما أو واحدة منهما على الأقل.. شائقة نعم.. مُثيرة لا جدال.. أثارت ردود فعل غير منتظرة، عديدون يُجمعون على هذا.. لكن! ما تلك الأجواء المثالية التي أردت أن تعرضها من خلال أبطال الروايتين؟ وهل يئست من مجتمعك لتقدم بدلاً من ذلك أشخاصاً من سطور، هم أقرب للملائكية منهم للبشر الذين يخطئون ويُصيبون، ولهم اجتهاداتهم الكاملة والناقصة وهم يمارسون حياتهم ويسيرون شئونهم الخاصة.. مثلك؟ لماذا وضعت أكثر آرائك على لسان أبطال الروايتين؟

...اسمع مهند: أنا متأكد - وأعلمتُ الإخوان بهذا قبل قدومك - بأنك ستجعل من أسطورة وحكاية الكنـز التركي رواية جديدة ستكتبها، وستخلق تبعاً لهذا أبطالاً مثاليين، وآخرين مليئين بالشرور والآثام، لا تدع عاطفتك تتغلب على مصداقيتك وعدالتك عند كتابة الرواية الجديدة.. إن كان هناك مشروع كهذا..وأعتقد بأن سيكون!

...عزيزي مهند: أنا أعرف من خلال أسطر رواياتك ومقالاتك أنك جدُ بعيد عن المحيط الذي كنت تدور بين حلقاته قبل قليل، ومع هذا أصررت - أنا - على أن تكون هنا، بل إنني اعترف بأن تأخرنا عن لقائك كان مقصوداً..على الأقل من قِبلي، كنت أريدك أن تجد في هؤلاء المدعوّين الوجه الحقيقي الآخر غير

Twitter: @ketab_n

المكتشف، والذي قدرت أنه لن يكون جذاباً لك رغم أنه ليس كذلك! لأجلك وحدك خُرقَ هذا اليوم تقليد البنك العريق في ألا يتواجد في حفله السنوي سوى عملائه فقط، أنت لم تكن عميلاً لهم ولن تكون، كانت ستفوتك فرصة كهذه لولا دعوتي!! لقد تزودت بمادة أخرى للرواية الجديدة.. أليس كذلك مهند؟

...يا عزيزي: أتحسب أن كل الرجال والسيدات الواقفين غير بعيد عنا قد وُلدوا أشراراً مليئين بالطمع والرغبة في الاستحواذ المجنون؟ كلا يا أخي! هم نتاج عصرهم، وحصيلة معادلات أيامهم.. كم يساوي واحد + واحد.. اثنين بالطبع! وهكذا هم! عندما لا يجد الإنسان في اقتصاد وطنه فُسحة لأن يصبح ثرياً، أو لنقل مُكتفياً إلا عبر الـمُقامرة والمغامرة في سوق الأسهم وادعاءات توظيف الأموال والمساهمات الوهمية، كيف سيكون الحال بعد ذاك الاكتشاف؟ سيكون مقامراً ومغامراً صغيراً وإن نجح فسيكون هاموراً كبيراً! أمرٌ آخر: إن وجدَ شخص ما مُبدع أُناساً آخرين يريدون، إلى جانب تمتعهم بالمكانة الاجتماعية وأرصدة مالية لا يمكن إحصاؤها، أن يصبحوا فجأةً شعراء وروائيين وباحثين في قضايا الإنسان والتاريخ والأنثروبولوجيا، إن عِلمَ هذا البائع للأفكار بأن هذه الرغبة الشاذة ستدفع به، في حال دفعها للتحقق، أن يكون في

Twitter: @ketab_n

مصاف الوجهاء.. عُملاء البنوك العالمية، أليس حُمقاً ألا يبادر إلى اغتنام الفرصة مهما أُطلقَ على عمليات التبادل تلك من تسميات؟!

...أنظر مهند! رؤساء التحرير الأزليون أليسوا هم نتاج مجتمع لا يريد التغيير؛ لأنه يخاف منه وترتعد فرائصه إن فكر مجرد التفكير فيه؛ عبر الأزليين تبقى البلاد - أي بلاد – هي الأفضل في الطرق ومخرجات التعليم والكفاءة الاقتصادية ومزايا استقطاب الاستثمار؛ ضياع جيل الشباب مسألة ثانوية، بمقدار جهات مختصة، والتليفونات ساخنة، ومعها أحاديث منبرية، معالجتها والقضاء على شرورها.. كما تُخبر بذلك صُحفهم.

...بلادنا الخليجية يا عزيزي لديها الكفاءات، وهناك اعترافٌ ضمني ممن بيدهم الأمر، بالمشكلات وعمق تأثيراتها، لكن "بعبع" الخوف من الجديد هو الذي أبقى الأزليين مهما كانت مواقعهم، وبالتالي إبقاء بالتالي المكاشفة وإصلاح أعطاب البناء الاجتماعي مسجونين في قلعة يحرسها جنود التوجس.. نعم واحد + واحد يساوي اثنين لا محالة!

..أعندك وقت إضافي لثرثرتي؟

...الرياضة عندما يدخل ساحتها الجهلاء الذين لا يملكون تأهيلاً في ثقافتها، سوى أنها سوق لبيع وشراء اللاعبين وذمم واضعي الأنظمة ومراقبيها والتلاعب في نتائجها، ألا ينتج عن كل

Twitter: @ketab_n

هذا ما تراه من سيادة عصر الضياع الرياضي والنكوص المحليين كلما دخلنا حلبة التنافس العالمي؟.. عِلم الرياضيات البسيط يقول: إن واحداً زائد واحد يساوي اثنين، والحياة الرياضية تقول هذا.. وإن كان بشكل مختلف!

...تلك الطبقة من النساء في بلادنا عندما تسمع عزيزي بأن من شروط تخفيف الغرب الحملة على بلدانهن، توسيع مشاركتهن في الحياة الاجتماعية والسياسية بعد عقود من تجاهلهن وظلمهن حتى في أبسط الحقوق الإنسانية، ألا يمكن تخيل ما يمكن أن تنتجه تلك الحملة من وقود لماكينة أحلام تلك الطبقة؟ هكذا فهمن كيف تُدار الأزمة: لغط حول قيادة المرأة للسيارات.. والأكتاف الأنوثية تتماس بالأكتاف الذكورية في حفلة لبنك أجنبي خارج الحدود.. هل أُعيد الحسبة الرياضية إياها؟!

...شاهِد الواقفين في الناحية اليمنى القصيّة من حفلة الاستقبال والتعارف.. نعم هناك! كلهم تجمعهم السمسرة وأعمال الوساطة، في عقارات المدن الجديدة والقديمة، ولن نستبعد هنا المساومة في تحصيل الديون وابتزاز أهل الحقوق! إنهم يمتهنون تقديم كل شيء: عروض التسليح والأمن، ولديهم مشاريع لقنوات تسلية جديدة، إلى جانب دراسات إنشاء شركات ذات نشاطات مختلفة، ومن ذلك: ردم البحار وبيع الرمال!

Twitter: @ketab_n

إنهم، وهم يقومون بكل هذه الأعمال، يكسبون كثيراً، مُزيحين أي فكرة، بأن ذلك يتم على حساب التوازن الاجتماعي والاقتصادي والـخُلقي لبلدانهم، أنا أراهنك أنهم لم يقرأوا كتاب الفضيحة والعار[1] وأسطره الـمُنتقاة التي تقول: "في الإنماء يجب أن تُجعل الأولوية المطلقة للإنسان، وأن تصب المشاريع قبل كل شيء في صالح تحسين شروط الحياة المادية لمجموع الناس، وليس النخبة من المحظوظين أو بعض الانتهازيين، وفي أحسن الحالات تفقد هذه النخبة بنمط حياتها وتفكيرها، الصلة بالسكان الذين انبثقت منهم ولا تعود قادرة على تمثيلهم ولا على التواصل معهم، وتصبح جسماً غريباً لا يتمتع بثقة مواطنيه ولا يمكنه بالنتيجة أن يؤدي دوراً في تطور المجتمع الذي ننتمي إليه."

...آه يا عزيزي مهند! أنت تقول من خلال كُتبك ومقالاتك وما سمعت من الآخرين عنك: إن مجتمعنا لا يمثله المتطرفون الدينيون، ولا عُبّاد المال.. هؤلاء الذين - قد - تشركني معهم، وأنا أقول: إن الكُتلتين هما نتاج مجتمعات مأزومة، وإن الطرفين يعبران عن المجتمع المحلي في وقته الراهن خير تعبير، وإنهما

(1) الفضيحة والعار: كتاب للألماني برتراند شنايدر الأمين العام السابق لنادي روما.

Twitter: @ketab_n

سيحتاجان لتدخل العقلاء لإعادتهما إلى جادة الوسطية بكل أشكالها.. مهمة صعبة..مستحيلة..أليس كذلك؟

...ستسألني بكل تأكيد: أين أقف أنا الثرثار المتفلسف بين كل هذه النقائض؟ أنا أقرأ كُتبك وكتب الآخرين الحالمين في الليل، وأُنهي الصفقات وأبحث عن المغامرات في النهار!

أنهى الشيخ بندر حديثه الطويل الذي أثار اهتمام مهند، دل على هذا متابعة الثاني غير المعتادة للحركات التعبيرية لملامح وجه الشيخ ويديه عندما كان يوضح وجهات نظره الـمُتفجرة، مثل هذه النوعية من الناس تُثير عقل وروح مهند وحتى لو كان لديه موقف مبدئي من بعض تصرفاتها، أو تصرفات رُصفائه الآخرين، لكن هذه الإثارة لم تدفع السعدي إلى الانجرار لحلبة نقاش فلسفي من نوعٍ خاص لا ينتهي، وفضل بدلاً من ذلك - مؤقتاً - أن ينصب اهتمامه على كنــز المعلومات الذي بين يدي الشيخ الـمُثبتة أو النافية لصدقية وثائق وخرائط مشابهة، أخبر تحسين قبل أشهر أنها بحوزته.

وبعد انتظار طال لمعرفة ردة فعل مهند على حديث الشيخ بندر جاءت تلك الجملة الاستفسارية من المدعو - استثنائياً - لحفلة الخليج المثيرة:

Twitter: @ketab_n

ـ أود أن أعرف، اقتصاداً لوقت الجميع، نتائج مطابقة الوثيقتين اللتين لدى الشيخ بندر والأخ فواز، وليعذرني الجميع وخاصةً الشيخ بندر في أن أُخيب أملهم هذه الليلة بما يودون، بالتأكيد، سماعه على هامش سبب اجتماعنا الذي نشهده الآن؛ أنا لست في لياقة عقلية ولا نفسية لتتمة سجال فكري عظيم كالذي فتحه أخي المثقف بندر بشكل لم أكن أتخيله، وأود بدلاً من هذا أن ينصب حديثنا على نتائج فحص الوثيقتين، على أمل أن تطرح رؤانا المختلفة في كل شخوص حفلة هذه الليلة التي احترم أعمال أكثريتهم، ولا نية حاضرة في أن أعاقب مداديا أقليتهم كما افترض الشيخ بندر، الـمُجيد في تسويغ هفواتهم الناشئة - كما استشففت من كلامه - من عدة عوامل صنعت تلك الهفوات. . والآن! أخبروني عن النتائج التي أتت بنا هُنا وأتشوق لسماعها. . هل تماثلت الوثيقتان؟

فطن الشيخ بندر والآخرون إلى أن أي شيء غير ما لديهم من معلومات حول الخرائط والوثائق لن يكون متاحاً ليلتها، وفطنوا كذلك إلى حقيقةٍ مهمة غابت، للغرابة!، عنهم وهم يتشوّقون إلى نتائج الاستفزاز العقلي الذي حاول بندر إثارته مع مهند: ما جمعهم واقتطع جهدهم ووقتهم الثمين وأثار فضولهم القديم المتجدد، ليس

Twitter: @ketab_n

سوى الذي يطرح مهند سؤاله عنه.. ويعرفون جوابه، الـمُتكفل به دائماً صديقهم الـمُتحفز تحسين فواز:

ـ صدقت عزيزي مهند نحن نحتاج لكل دقيقة للخروج من أزمة جديدة أدخلتنا فيها تلك الوثائق الملعونة:

المخطوطتان ورُسوماتهما المرفقة معهما لم تتشابه إطلاقاً، بعد فحصنا الدقيق لهما قبل أن نأتي إلى هذه الحفلة تبين، للأسف، أن أمامنا موقعين للحفر وليس موقعاً واحداً كما ظننا قبل أشهر، وهذا يتطلب منا، أو لنقل أكثر تحديداً منك يا مهند، جهداً مضاعفاً آخر، يُضاف إلى الجهد الذي أبديت استعدادك الكامل لبذله سابقاً. أنت المحور في كل الذي سيتم، وبدونك حتى قبل أن نصل إلى نتائج هذه الليلة الـمُخيبة للآمال، لن يكون هناك كنزٌ تركي، ولن يكتب أحدٌ عن الأسطر الأخيرة لحكايته!

* * *

انتهى اجتماع طلاب الكنز التركي باتفاق، على أن يبدأ حفر أول الموقعين في أواخر شهر شباط/فبراير سنة 2006م، على أن يتبع ذلك مباشرة التنقيب عن دفين الموقع الثاني، وأرجع مهند لرفقاء المغامرة أسباب تأخير المشروع في ذاك العمل الخطر، إلى رغبته في توفير جو من الأمان شبه الكامل لمهمتهم البالغة

Twitter: @ketab_n

الحساسية، ومن أجل تلك الرغبة فإن عليه القيام بعدة خطوات متداخلة توفر أجواء سرية مثالية لمثل هذا العمل، على أن يعاود الجميع الالتقاء في العاصمة الأردنية عمان منتصف كانون الثاني/ يناير لمناقشة آخر استعدادات الأطراف كلها، ووضع آخر لمسات العمل التاريخي الذي ينوون القيام به، مع التوصية بأن يبقى ما في الصدور طيّ الكتمان الشديد.

انفضّ الاجتماع واتجه كل واحد من المجتمعين لبُغيته، وكان أولهم مهند السعدي الذي تذكر وهو يطلب سيارته من منادي مواقف فندق شاطئ الجميرة، أنه نسى أن يمر على صديقه اليوناني دولاتوس، الذي ظل ينتظره طوال الاجتماع في مقهى النُزل الخليجي الفخم.

...عندما عاد مهند أدراجه لاصطحاب آخر النُسخ الجديدة من زوربا اليوناني وجد العجوز الإغريقي في وسط كوكبة من الشبان والشابات الذين كانوا مسحورين بحديثه، الذي تشاركه فيه يداه ورجلاه الراقصتان، عن الجزر اليونانية الجميلة، وحبور أهلها، وإقبالهم على الحياة، كان الرجل المتوسطي بحق نجم تلك الحلقة من الصبايا الجميلات وذوي الوسامة اللافتة من اليافعين.

لم يكن النجم في أحسن أحواله النفسية من قبل مثلما بدا تلك

Twitter: @ketab_n

الساعة، ولهذا لم ينتبه في أول الأمر لإيماءات وتلويحات صديقه السعودي المتكررة له، بأن وقت انصرافهما إلى فندقهما البعيد قد حان أوانه، وبعد محاولات عديدة فاشلة استطاع مهند الإشارة إلى مكانه القريب نسبياً لمن كان يتحدث للمتجمهرين حوله.. تارةً عن الأرباب الكُثر لأثينا القديمة.. وعن آخر أخبار وملاهي ومراقص عاصمة الفلاسفة العتيقة تارة أخرى!

عندما اقترب العجوز اليوناني من صديقه الـمُشتت الذهن قال له وهو يغمز بعينه الـيُمنى:

ـ مهما كانت مضامين اجتماعاتك مع الآخرين، ومهما كانت نتائجها، ومهما كانت نوعية الطعام أو الشراب الفاخر الذي تناولته مع الآخرين في حفلكم المليء بالتصنع والرتابة؛ فإنك لم ولن تصل إلى النشوة التي ارتقيتُ - أنا - إلى قمتها هذه الليلة. .تباً للاجتماعات وخلوات العمل!

. . .صدقني:الحياة هنا. .في القلب. .في الشفتين. .في العينين والأذنين. .في كل أحاسيسنا، السعادة ليست في الذهب والثروة. . هي في التخاطب والتلامس الإنساني الحميم. .في الصراخ والرقص وكسر الأطباق وتحطيم قضبان سجن الحظوظ والمقادير. . هلاَّ أرجعتني إلى تلك الحلقة المثيرة من البشر الساحرين؟ ولِمَ لا تكون

Twitter: @ketab_n

- أنت - أحدنا هُناك؟ لِمَ لا تتعلم مني ومنهم أكثر بكثير مما تُعلمه لك كُتبك الخرساء الصماء.. وطاولات الاجتماعات؟!

دفع مهند صديقه الإغريقي وهو يُظهر علامات الانزعاج مما كان يقوله رفيق رحلاته الدائم الـمُعايش لحظتها حالة من النشوة الاستثنائية، لكن روحه كانت مُستلبةً بالفعل - رغم المكابرة - بتلك الجمل الـمُبهرة الساحرة الخالية من التكلف، والتي سمعها للتوّ من حفيد المستودع البشري.. للحكمة القديمة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

... في بلاد الأفغان

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الزمان: 25 حزيران/يونيو عام 1925م.

المكان: السفارة التركية في العاصمة الأفغانية كابول.

* * *

بعض أشجار الجوز في بلاد الأفغان لها خاصية الإثمار في فصول عديدة، شجرة واحدة من تلك الأشجار التي يحبها أهل تلك البلاد كثيراً بدت باسقة بشكل لافت في وسط سفارة دولة الوطنيين الأتراك الـجُدد.. بـكابول.

كانت تنظر إلى تلك الشجرة أربع عيون دامعة، صاحباها احتضنا بعضهما طويلاً قبل أن يجلسا مبللئ الأحداق وهما ينظران بشكل غير مقصود وفي وقت واحد إلى تلك الشجرة العتيقة المثمرة.

تجددت فصول الحياة مرة أخرى، كما الشجرة، لشخصين كانا آخر مرة قد التقيا فيها منذ ما يزيد على ستة أعوام بدت لهما وكأنها دهورٌ لا تنتهي.

على أريكتين في السفارة التركية بكابول، طالت فترات الصمت

Twitter: @ketab_n

بين فخر الدين باشا القائد السابق للقوات العثمانية في الحجاز، وسفير تركيا - ذات الصبغة العلمانية - الحالي في بلاد الأفغان المستقلة منذ عام 1921م، وبين صديقه القديم مختار بك كبير المهندسين العثمانيين، والموفد من قِبل الغازي أبو الأتراك مصطفى كمال، لمساعدة البلدان، التي كانت تربطها بتركيا القديمة روابط قوية، على بناء الجسور والبُنية التحتية فيها، ولدراسة احتياجات الوطنيين في البلاد الإسلامية بعد عصور الاستقلال، وما تلاها من محاولات لإيجاد هوية وطنية، تخلُف الهوية الإسلامية التي أصبحت في ذمة التاريخ.

بعد لحظات التيه النفسي، عادت أعين رفيقيْ المقاومة والحرب لتتلاقى مرة أخرى، ومعها استحضار لتاريخ مضطرب لبلديهما، ولروحيهما المعذبتين بذاك التاريخ الذي ظنا أن المستحيل هو الأقرب لتحولاته السريعة المذهلة:

بعد أن سُجن فخر الدين باشا في قصر النيل بمصر ولمدة مئة وثمانية وثمانين يوماً، أُخذَ إلى مالطة في صيف عام 1919م كأسير حرب للحلفاء، وهناك بقي سجيناً حتى 30 نيسان/أبريل 1921م في قشلة فورت سالفاوتورة، وبعد ذاك الأسر أُخلي سبيله، مع غيره من سُجناء الحرب الأتراك، فتوجه إلى تركيا عن طريق إيطاليا وألمانيا وروسيا، ليصل أخيراً إلى مدينة قرص الواقعة في شرق

Twitter: @ketab_n

تركيا في أوائل شهر آب/أغسطس 1921م، ومن تلك المدينة إلى أنقرة في أواخر أيلول/سبتمبر من السنة نفسها.

لم يلبث، طويلاً، القائد الذي لا يكل ولا يمل من خوض الحروب، أن التحق بحركة الوطنيين الأتراك بقيادة مصطفى كمال الرافضة لكل المعاهدات والعقود والالتزامات الـمُبرمة من قِبل حكومة إستانبول منذ عام 1920م، والتي لم تُعطِ الحق للقوميات المندثرة تحت السيادة العثمانية القديمة في أن تستقل أو تُدار ذاتياً فحسب، بل حق اقتِطاع أجزاءٍ من أراضي الرجل المريض ذاتها.

في العشرين من أب/أغسطس 1921م عاد فخر الدين باشا إلى ساحات الوَغَى مرة أخرى، انخرط حينها كقائد كتيبة ضمن الفرقة العسكرية الثانية عشرة التي يرأسها القائد كاظم قرة بكر، ومن خلال جهود تلك الفرقة أمكن للأتراك وبمساعدة الروس هزيمة جمهورية الأرمن التي قامت في القوقاز وشرق الأناضول، وما هي إلا أسابيع قليلة حتى أُمِرَ فخر الدين باشا بقيادة كتيبة لمسافة 1200 كم بالطريق البري، تتوجه إلى سقاريا الواقعة بالقرب من إستانبول، وهناك وجد الباشا أن مشاركته ليست ضرورية؛ لأن القوات التركية بقيادة مصطفى كمال كانت قد استطاعت قهر اليونانيين ودفعهم صوب شواطئ البحر المتوسط، إلا أن كمال أمرَ القائد المخضرم العجوز بأن يستعد لمصاحبته للسفر إلى أنقرة حيث أُعد لأبي

Twitter: @ketab_n

الأتراك الوطنيين، احتفال ضخم أُسبغ فيه عليه لقب الغازي، الذي لم يكن أحدٌ ينفرد به سوى سلاطين آل عثمان الأوائل.

في تلك الأيام أصاب سهم الشتات النفسي قلب الباشا وأدماه، فتركيا كأرض غالية عليه وحق الدفاع عنها لا يمكن إلا أن يكون خيار حياة له، لكنه يرفض في الوقت نفسه أن يكون الثمن في محو هذا التاريخ القديم ورموزه.. أين الخلافة والسلطنة؟ أين الـخُلفاء وصدورهم العظماء؟ أين الفرمانات الهمايونية الموجهة للعالم الإسلامي باسم خادم الحرمين الشريفين؟ أين تركيا العظيمة التي تُهاجِم ولا تُهاجَم التي تَحتَل ولا تُحتل؟

للخروج من محنة ذاك الشتات النفسي المؤلم قرر فخر الدين باشا أن يلعب في مسرح الحياة دورين متناقضين: ففي الظاهر لعب دور الوطني التركي المتعصب لقوميته وعلمانيته، ولكنه في الخفاء، واعتباراً من عام 1923م، أخذ يتقمص الدور القديم الذي يُحسن دائماً أداءه؛ تلك السنة شهدت حدثين مهمين: توقيع معاهدة لوزان، التي نصت على عودة السيادة التركية على ما يقرب من كل الأراضي التي تشتمل عليها تركيا الحالية، مع إلغاء الامتيازات الأجنبية. والثاني - والأهم - هو ذاك المفجر لينابيع الأسى والحزن في روح الباشا.. ولِمَ لا والماضي البعيد المليء بالسيادة العثمانية على أجزاء واسعة من العالم، يختفي ومعه رموز القوة

والسيادة والعصبية الدينية؟ لقد أصدر المجلس الوطني الكبير في جلسة سرية، وبناءً على اقتراح مصطفى كمال، قانوناً جديداً في الأول من آذار/مارس، تقرر فيه خلع الخليفة وإلغاء الخلافة الإسلامية بشكل نهائي، مع نفي أفراد آل عثمان جميعاً من الأراضي التركية!

كِلا الحدثين دفع المحارب القديم إلى صنع بناءٍ من خيال:

فكر الباشا بعد انتفاء الحاجة إليه كمحارب وقائد، وبعد تقزم النفوذ والاتساع التركيين، في أن يؤسس جمعية سرية تضم رجال العهد العثماني السابق، وتهدف، فيما تهدف، إلى إحياء خلافة آل عثمان الإسلامية. . وإن بطرق عصرية، تُفصل عبرها السُلطات وتُقر حقوق الأمه كلها، مع إعادة تنظيم الشأن الداخلي حسب متطلبات وحقائق أزمنة القرن العشرين، الـمُختلف كلياً عن القرون السابقة.

الخيال الجامح للباشا في تأسيس مثل هذه الخلايا والجمعيات غُلف بادعاءاتٍ زائفة نشرها حوله، بأنه متعصب للحكم الوطني العلماني الجديد، وبأنه يرغب أشد الرغبة في أن يطلقَ عليه الجميع مسمى تورك كان[1]، كدلالة على الغلو القومي التركي لديه!

(1) بمعنى الدم التركي.

Twitter: @ketab_n

تلك الخدع ومظهريات السلوك لم تنطلِ على أتاتورك، وعلى جواسيسه الكُثر الذين راحوا يندسون بين قادة الحرس القديم العثماني، يسجنون هذا، ويبعدون ذاك، ويراقبون الأشخاص المهمين.. وحتى نياتهم، مع التفريق المكاني بينهم، بحيث لا يوجدون في مدينة تركية واحدة، وبهذا تضعف اتصالاتهم المفترضة لتأسيس الحركات والجمعيات السرية، التي يعرف مصطفى كمال أنها تعاكس مسيرة التاريخ آنذاك، لو أنها نجحت، فقط، في تكوين خلاياها، لكنه يعرف كذلك أن من رحم بلاد الأناضول تُولد دائماً المفاجآت غير المحسوبة.

...فخر الدين باشا القائد الشُجاع ذو التاريخ العسكري الـمُبهر والمليء بالفخار؛ لِمَ لا يكون سفيراً في إحدى سفارات الجمهورية التركية القصية؟ ستكون تلك مكافأةَ آخر العمر لأحد أهم رجال عصر التنهيدة الأخيرة لدولة بني عثمان، وهو في الوقت نفسه إبعاداً يخلو من الفظاظة للرجل الخطر، عن مراكز التأثير في بلاده التي كانت تجِدُّ في البحث عن هوية وطنية وعقيدة سياسية جديدتين لها!

ولقد كان هذا..! عيَّن مصطفى كمال صاحب تلك التخريجة فخر الدين باشا سفيراً لتركيا في الهند وأفغانستان لمدة أربع سنوات، بدايةً من عام 1922م، وبهذا ابتعدَ من سبقَ أن أطلق

Twitter: @ketab_n

الإنجليز عليه لقب نمر الصحراء، عن بلادٍ مازالت ذاكرتها تحتفظ بمشاهد سلاطينها المتحزمين بسيوفهم المنسوبة للرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين، وهم يتهادون في مواكب عظيمة تجوب عاصمةً حكمت ملايين من البشر والفراسخ من الأرض.

ماذا عن الآخر.. صاحب العينين الدامعتين والجالس على أريكة في مكتب سفير الجمهورية التركية بأفغانستان؟

غادر مختار بك المكلوم بأحبائه وبذكريات الأيام الخوالي دمشق، بعد أسبوع واحد فقط من وصوله إليها في أواسط كانون الثاني/يناير عام 1919م، كان كل شيء حينها ينهار أمامه: الماضي والحاضر والمستقبل، لم يكن يشغله وهو الـمُفلس من الحب والولد والمال، إلا تلك الصغيرة فايزة، التي لا يعرف كيف يرد على أسئلتها، ولا كيف يُبثُّ الطمـأنينة فيها بعد خوف الفقد المضاعف ورؤية فواجع الحرب والتهجير، وما لحق ذلك من قسوة المنافي ورعب زوّار الليالي.. سارقي الأحزمة، الباحثين عن أشياء لا تفهمها الصغيرة الخائفة.

لإخراج ابنته من كل هذا، أو التقليل من تبعات الفواجع المتبوعة بفواجعَ أخرى، أخذ كبير المهندسين السابق ابنته إلى إستانبول، باحثاً هناك عن مكان ولديه الوجيهين شفيق وسعيد

Twitter: @ketab_n

المرافقين لأمهما - زوجته السابقة - وزوجها. وبعد جُهد مُضنٍ وجد مختار بك المنـزل وابنيه اللذين أشاحا في البداية بوجهيهما عن أبيهما كتعبير عن سخطهما عليه، بعد فواصل الهجران الطويل لهما ولأمهما؛ ولاتهامهما له بأنه انساق وراء قلبه ونزواته، مُتخلياً عن واجباته وحقوق الأب والزوج والحبيب، المفروضة على من كان في سنه ومركزه.. وتجاربه!

لكن هذا الصد لم يطل بعد أن علِمَ الشقيقان من أختهما الصغيرة فايزة بكل تفاصيل مسيرة الآلام التي عاشتها البريئة مع الذي حمل هدايا الحياة المتفجرة وتضرر منها، مثلما فعلت هداياه القديمة بمن أحبوه يوماً وتعلقوا به.

إنضمت الأخت الصغرى الـمُلتاعة للبيت الكبير الذي يضم زوجة أبيها وأخويها.. ورب البيت الحنون سميح المعلم، الذي رحب بالزائرة الجديدة لأنها تحمل ذكرى من أحبهم - كرمز - يوماً، ولأنها امتدادٌ بهذا الشكل أو بآخر لمن يعايش حاضراً ودهم ونُبل عواطفهم. لكن الجميع اشترط ألا يكون هذا الاحتواء مدخلاً لغزوٍ جديد يداهم قلوبهم من جديد، لو أنهم شاهدوا من أدمى القلوب حيناً من الدهر يُمازج أيامهم بحجة الاطمئنان على الصغيرة.. وعلى من يرعى الصغيرة!

فهم مختار بك مُجدداً وهو اللماحُ الذكيّ قانون الحياة الأزليّ

Twitter: @ketab_n

الذي لا يفارق الإنسان: لا يعقُب الابتسامات الواهنة التي يغتصبها البشر من فم تنين الأزمنة، إلا تلك الدموع الغزيرة والانكسارات الرافعة رايات الاستسلام للمقادير التي لا ترحم.

أجلى مختار بك نفسه وهو يطارح لوعات فقد الأحبة والتاريخ والدول، إلى كل مدن تركيا تقريباً. .شرقاً وغرباً. .شمالاً وجنوباً، كان يبحث عن نفسه وعن معنىً لما بقي له من أيام في هذه الحياة، واستقر أخيراً ولأشهر عديدة شهد فيها الداخل التركي صراعات الحرب الأهلية، في مدينة أنبولو الواقعة على البحر الأسود، قبل أن يتركها ناقلاً نفسه التائهة إلى شواطئ بحر آخر إلى. .أزمير، حيث عاش فيها لمدة تزيد على ثلاث سنوات؛ إلى أن وصلته برقية في أوائل خريف عام 1923م من مصطفى كمال تستدعيه إلى العاصمة التركية الجديدة أنقرة لمقابلة مستشاري الغازي.

سحبته تلك البرقية من فوهات الاحباطات النفسية المتراكمة، ليجد بعد تلك المقابلة أن أتاتورك يريد من عبقرية هندسية، مثله، أن يرأس بعد فترة لم تُحدد، وفداً يضم مهندسين وأطباء واقتصاديين للذهاب للبلدان التي كانت لا تعتقد أن رابطاً آخر غير الرابطة الإسلامية يمكن أن يوحد بلداناً مختلفة في القوميات واللغات والأعراف، وهو الأمر الذي لا يظنه مصطفى كمال ممكن

Twitter: @ketab_n

التطبيق في عصرٍ يتبدل ويتغير، وأن البدائل كثيرة وعديدة سوى العودة لمثل تلك المناحي من التفكير العقيم!

مختار بك وهو يُختار لترؤس بعثة التبشير بتركيا الجديدة من قِبل رئيس الجمهورية الجديد، ونجم تلك السنين، كان يعلم أن التشريف ذاك لا يعني اعترافاً متأخراً بجهوده السابقة وعبقريته في مجاله الهندسي فقط، بل محاولة من العهد التركي الجديد، ألا يبقى في تلك الأيام أحدٌ من مشاهير الدولة العثمانية المقبورة، في داخل الدولة الساعية إلى التغيير الحثيث، وحتى لو كان النفي يختفي داخل شكل تقدير مُبالغ فيه، للكفاءات والعقول التركية، التي عاصرت دولة بني عثمان؛ لأن البقاء الطويل في الداخل الجديد الهش قد يعني محاولات تجري هنا وهناك لاستحضار أطياف الماضي المرعبة!

إقتحمت رياح ربيعية دافئة مكتب السفير التركي العلوي، مُحركةً بعنف النصف الزجاجي المفتوح للنافذة الـمُطلة على المكان الذي انتصبت بشموخ فيه شجرة الجوز العتيقة، كانت تلك الحركة الفجائية للطبيعة وما تلاها كافية لإيقاظ صديقي المحن القديمة والهموم اللامتناهية الحاضرة، من تلك المساحات الواسعة من الأفكار المتلاطمة التي يبزُ فيها اللون الأسود ما عداه من الألوان، وعندما بدا أن تأثير الهواء الثقيل آخذ في التلاشي شيئاً فشيئاً، تنبه الرجلان إلى استحالة خروجهما من أسر الـحُزن الصامت إلا

Twitter: @ketab_n

بمشروع كلمات من أحديهما - على الأقل - تدفع بالأسى الرازح على روحيهما قليلاً، حتى يفسح - إن قُدر له ذلك - للعقل مكاناً يتحرك فيه، على أمل إعطاء إجابات عجزت عن إيجاده من قبل الأنفس المنكسرة...

أخذ فخري باشا زمام المبادرة تلك عندما قال:

ـ أنا وأنت يا مختار بودنا أن يكون أول حديثنا المشترك بعد تلك الغيابات القسرية والمنافي الجسدية والنفسية ما تعارف عليه الناس من تحايا الشوق واللهفة، أنا وأنت يا صديقي لا نستطيع هذا برغم وجوبه، بيننا وبين تلك الطقوس برزخ من الأسئلة واجبة هي الأخرى:

...لماذا حدث ما حدث؟ وهل كان لازماً أن يحدث؟ وهل بالإمكان تغيير وجهة ما وقع؟ أين نحن من كل هذه الوقائع والأحداث الضخمة المحيرة؟ أكُنا مُحسنين في اختياراتنا ومواقفنا؟ أم كان من الواجب أن نقف مثلما فعلنا..أم مثلما لم نفعل؟

...مؤلمة تلك الانقلابات في المواقف.. قاسية تلك التبدلات في داخل أمتنا وأنفسنا..أليس كذلك يا مختار؟

أنا وأنت يا صديقي نشابه البحارة الذين يعودون بعد سنوات إلى المواطن الأولى والجذور القديمة، فيجدون أن سنوات كدحهم

Twitter: @ketab_n

في البحار وعند أرصفة الموانئ والـمُقتطعة من أعمارهم، ذهبت سُدىً، عندما يجدون الزوجات قد ارتبطن بأزواج جُدد، والأبناء قد نسوا ملامحهم، والأصدقاء والجيران والأحباء مات منهم ورحل من لا يُحصى عددهم، والديار غير الديار، والنفوس ساخطة كئيبة بعد الرضا والآمال العريضة.. ما الذي بقي لنا يا بك؟ وهل نرفع الرايات البيضاء مثلما رفعناها يوماً في أرض العرب؟ ألدَيكَ إجابات؟ أعندك بلسم للقلوب الـمُحطمة؟ ما الذي تنصح للقيام به؟ أين كنـز الآمال قبل أن نسأل عن مصير كنـز الذهب؟

أتعرف يا مختار؟ كلما تذكرتُ أبيات محمد عاكف التي قُلتها لزوجتك المحتضرة في المدينة المنورة.. دمعت عيناي.. صدق قول شاعرك الحكيم:

نعم هناك حقيقة واحدة هي أني سأرحل عن هذه الدنيا.

سافرت وقابلت أُناساً كثيرين فلم أجن إلا الحيرة.

لم يستطع الباشا إكمال قصيدة عاكف المشهورة، منعت حشرجة بكاء مخارج الحروف عنده.. ثم توقف مُديراً رأسه تجاه مكان الشجرة العجوز وهو يغالب دموعه العزيزة؛ وهنا انتبه البك إلى أن أسوأ خيار في تلك اللحظات هو دفع صديقه المحارب القديم، إلى تلك الحالة التي يتعرى فيها الإنسان من ثياب الأنفة والعزة، ويستبدلها بدثار الضعف البشري المصنوع من الحسرات

Twitter: @ketab_n

والمخاوف والتأوهات. الباشا في رأي مختار بك لا تليق به إلا ألبسة الترفع والخيلاء.. وحتى لو كانت بالية كثيرة الثقوب.

لحظات الحقيقة تلك، والتي تكررت للمرة الثانية أمام مختار بك لم تمض هكذا بدون أن تُدون بإحكام في ذاكرة كبير المهندسين، وأول سطور التدوين غير الاعتيادي، هو تفحص تلك الملامح لصاحب الدموع القادم من تاريخ مضى، تعارف الناس على سرد أولى وقائعه ووقائع غيره المتشابهة، بكلمات مختارة.. تقول: "يُحكى أنَّ.."!

ما الذي كانت تقوله ملامح الباشا لصديقه القديم؟

...انطفاء بريق العينين.. تجعد جلد الوجه والرقبة، استلقت أخاديد الزمن الغائرة بوضوح على خدَّيْ الرجل الاستثنائي. كَثُرتْ ارتعاشات اليدين والجفون.. تثاقلت الحروف وتداخلت كلما شرع المُفوه القديم بنطقها و..!

- ألا تجد شيئاً لتقوله يا مختار؟

هكذا سأل الباشا صديقه وقد طال الصمت وأبطأت عينا، الذي لم ينطق ببنت شفة حتى الآن، بوعدهما: ألا يُترك الجليس الاستثنائي نهباً لمؤثرات غدر الدهور التي لم يسبق أن وفتْ لأحدٍ من قبل.

..قال البك وهو يحاول اختيار كلماته بعناية:

Twitter: @ketab_n

ـ كان بودي أن أجيب عن تساؤلاتك كلها يا باشا، لكنني، بحق، لا أجد ما أقوله، وأنا المكلوم، سوى أن أصارح أخي بحقيقة، لا فكاك من الاعتراف بها: لقد هُزمنا مرةً أخرى! هزيمة الآمال وتلمس مصارع الأحلام، أقوى بكثير، في رأيي، من رؤية الرايات البيضاء في المعارك!

في ساحات الـمُناجزة قد تنقلب الصورة، عندما تتغير عوامل ومعطيات، فيصبح المنتصر مهزوماً وبالعكس، أما عندما تخذُلك الحياة وتزأر في وجهك، فلا مناص من حفر قبور وعود النفس الجديدة، لن تنبُتَ - أبداً - والحال هكذا بذور التطلُعات والأمانيّ، وأرض الواقع بورٌ مجدبة ماؤها شحيح!

...عادةً يا باشا تأتي الإجابات بعد الأسئلة، هذه المرة أنا وأنت عرفنا الإجابات قبل الأسئلة: هُزِمَ مشروع دولتنا التي قضينا أعمارنا نُنافح من أجلها ونحارب. كُنا نُشيّد خطوط سكك الحديد ونبني الجسور، ونُجهز الجيوش ونخطط لمعاركها لأجل أمةٍ عثمانية تضم شعوباً إسلامية مختلفة اللغات واللهجات والأعراق، فما كانت النتيجة؟ خدعتنا شعوبنا الإسلامية، وحاربت مع الكفار ضد خلافتها، خِلافتنا وهنت، هي الأخرى، إلى أن أصبحت رجلاً دولياً مريضاً، يستجدي المساعدات وأميالاً مربعة كانت له، ويقدم له الدواء ممرض على شكل قائد ادعى أن كُل الأتراك أبناؤه، بعد

Twitter: @ketab_n

أن ألغى الذاكرة القديمة والبطولات الماضية.. وحتى لغة الأذان التي لم تعرف آذاننا غير حروفها العربية مُنذ مئات السنين.

الربّ أراد ذلك؟!..بعضهم يقول ذلك، هكذا مصائر الآلام بعد أن تشيخ.. عُلماء اجتماع كتبوا عن هذا؛ الفراغ في السياسة لا مكان له في عالم أقوياء العالم المتصارعين.. لا حديث للصُحف والباحثين - وحتى العامة - إلا عن تلك القوانين الجديدة القديمة!

...رغم ذلك يا باشا.. رغم هزائم مشروع دولتنا وهزائم حياتنا الخاصة..رغم الكآبة والإحباط مما مضى ومخاوف القادم، مازلتُ أنا وأنت يحدونا أمل سعيتَ له حثيثاً وبسرية، كما سمعتُ، لإرجاع شيء من الماضي، وسعيتُ له أنا المتردد، وبسرية، كما سمعتَ أنت. كُلي أملُ يا محترم أن نصحو يوماً، فإذا الدول غير الدول، والرعية غير الرعية، والقادة غير القادة، والذهب المكنوز في أيدي أجيال من الـحُلم، وإن لم يكن هذا كُله فليقبع الذهب في باطن الأرض نكايةً في الزمن...ناكث العهود؛ وفي الناس الذين لهم في كل يومٍ شأن من المواقف، نكايةً حتى فيَّ وفيك ونحن نقف الآن في خندق واحد، مع الذي ساعد على نسف الآمال التي يبدو أنها لم تكن تراود إلا مُخيلتنا وقليلين!

أتعرف يا باشا كيف كانت نكايتي بكل هؤلاء الأعداء ومعهم

Twitter: @ketab_n

الباحثون المغامرون عن الذهب، والذين لا مِلة سياسية ولا دينية لهم سوى الثراء فوق ثرائهم في أيامنا الحاضرة هذه، أو حتى في أيام قادمة لمن سيخلفون السلف ولا نعلم أشكالهم ومتى يخرجون؟!

تتبعتني جماعةٌ من السارقين هم مزيج، كما اعتقد، من الإنجليز ورجال الثورة العربية والأعراب أتباع من انتصر؛ عصابة لا أُخرج منهم بعض الأتراك الذين لا همَّ لهم إلا اقتناص فرص المحن والحروب، ويُخيل إليّ أن منهم من كان يهوى زوجتي الراحلة قبل أن أخطفها من الجميع؛ وقد يكونون من جماعات تضررت عندما بُنيت سكك الحديد والجسور وعُمرت المحطات؛ مَن تتبع خُطاي مُتلمساً طريق خرائط الكنز، هم خلائط من كل هؤلاء وهؤلاء.. لا أعرفهم وهم يعرفونني ويعرفون ما أُخفي؛ تجمعت غاياتهم كلهم وقد كانوا أعداءً يفرق بينهم المعتقد الديني والهوى السياسي واتجاهات السلوك؛ كانوا مجاميع في واحد أو أكثر، هدفهم ما أخفاه كبير المهندسين بالتعاون مع قائده الباشا، ولم يبقَ مكان يُخفي ذلك السر إلا كمر[1] لففته على وسطي منذ اعتُقلت في المدينة المنورة، عندما غدرت الدنيا بي وبك وبدولتنا الراحلة.

(1) الكمر: الحزام.

Twitter: @ketab_n

هجم غُرباء الوجوه معلومو الهدف والغاية على غرفتي في خان عتيق بدمشق قبل أعوام، وهناك نثروا فزعهم في قلب ابنتي الصغيرة المفجوعة من سابق الوقائع والأحداث؛ ليسرقوا - وطفلتي تنظر - الحزام الصدئ الـمُتفسخ.. مجانين أغبياء! لم يعرفوا أن إلهاماً قال لي إنك مُراقب يا مختار وستُهاجم لا محالة، ولهذا خبأت وثيقة مُرشد الذهب في بطانة طربوشي[1]؛ لقد ذهب جهدهم الكبير هباءً يا باشا! طربوشي الثمين الآن في حرز مكين في بيت العائلة بـأزمير، لن يستطيع أحدٌ معرفة أولى خطوات الوصول للكنـز إلى أن يجدوا ما لا يستطيعون الوصول إليه أبداً.. أو أن ينقبوا في داخل عقلي.. أو أن..!

جحظت عينا الباشا وهو يسمع ما يشبه الاتهام الـمُبطن، لا في وطنيته - لأنه يعرف أن مختار هو أعلم الناس بِخُلقه ومبادئه - ولكن بتفريطه وإهمال ما لم يُهمل، ولإزالة سوء الظن ذاك سارع إلى القول وهو يضغط على حروفه ويظهر العتب من خلال حركات يديه وحركات رأسه المروحية:

ـ لا..لا يا مختار! كنت أظن أنك أنت نقطة الضعف التي تُمكن لسارقي إرث الدول ومقتنصي مُخلفات نكبات الأسر وقصص

---

(1) غطاء الرأس التركي.

Twitter: @ketab_n

الحب ما يخططون لأجله. أنت رقيق المشاعر مهما حاولت أن تُبدي على غِير ذلك، طيب السريرة، ويمكن تمرير الصداقة ذات المقاصد عليك بسهولة؛ تلك المناورة التي قُمتَ بها تحسُباً لسرية الخريطة خالفت توقعاتي.. كانت ضربة معلم هندسي، خبير في الخداع السياسي وزيادة لوعات الباحثين عن الثروات، كما أنت خبير في أعمال الهندسة..وأشياء أخرى!

...أتعرف يا مختار كيف نجت النسخة الثانية التي بحوزتي من السرقة، التي كانت وكأنها قدرٌ مقدوراً علينا؟!

...في إحدى غرف الطابق العلوي لمبنى القيادة الواقع أمام باب المجيدي، وفي اللحظة التي انصرفت عني وأنا أعاشر آلام الهزيمة ومعاناة خيانة الحياة لكل مبادئنا وأحلامنا السابقة، وبعد أن كتبتُ خطاب التنازل عن القيادة للأميرالاي نجيب بك ورفقائه، في تلك الساعة وما تلاها اتفقت معك على الاحتفاظ بالوثائق ورسوماتها المرفقة في حرز مكين وسط أجسادنا، لكنني - وعذراً يا صديقي - لم أفِ بوعدي ذاك لك، كُنت خائفاً أن أنهار وأنا أُعذب في سجون مصر، كنت مذعوراً أيضاً أن أضعف عندما يتم إغرائي من قِبل الحلفاء أو الحكام الجدد في بلادي، كانت روحي ستُقبض قبل الأوان لو أني خسرت معركتي الأخيرة التي سلاحها كـنـزٌ مدفونٌ في أرضٍ قصيةٍ موحشةٍ تم إعداده لترثه أجيالٌ مثالية من عدم.

Twitter: @ketab_n

وحتى أقضي على مخاوفي، الحقيقية منها أو الـمُبالغ فيها، قررتُ أن أدفن بشكل سري، حتى عنك، نُسخة الوثيقة الأخرى الأصلية، في مكان - ما - قريب من بوابة الجهة الجنوبية لسور مقبرة بقيع الفرقد، أما ما وجده أفراد العصابة التي لاحقتني مثلما لاحقتك، والذين لا نعرف مَن هم إلا أن يكونوا مغامرين أفاقين قد يلبسون ألبسة سياسية مختلفة لمجرد الخداع؛ ما وجده الأشرار في الكمر الذي سُرق مني في سجني المالطي سلفاوتورة ليس إلا وثيقة مزورة خططتها بإتقان تحسُباً لمثل ذاك اليوم المرتقب، مثلما فعلت أنت بذكائك يا صديقي الصدوق. هل نعتبر يا مختار أن ما فعلناه هو سهم كنانتنا الأخير الذي أطلقناه ضد وحش الهزيمة، وشراك الحياة، وخداع الأعداء الـمُظهرين الصداقة والاحتواء، وضد فقدان حميمية علاقات الزوج والولد؟!

سحابةُ غبارٍ كثيفة بدأت تغطي بذراتها الصفراء الناعمة شجرة الجوز العتيقة، في اللحظة التي أنهى فيها الباشا حديثه مع صديقه القديم، الغبار لم يعد يمنع مشاهدة الشجرة العجوز فحسب، بل كل محيط الرؤية حولها؛ عندها عادت أعين الصديقين القديمين لتتصالب مرة أخرى وفيها بلل رقيق وغشاوة أسئلة. . تقول: . . .وماذا بعد أيها الأسى؟

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

لا شيء

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الزمان: الاثنين 27 شباط/فبراير 2006م.

المكان: إحدى غرف فندق الأنتركونتننتال دار الإيمان في المدينة المنورة والمطلة على الحرم النبوي الشريف.

* * *

كلمة لا شيء أخذت من مهند السعدي وقتاً طويلاً حتى يختارها كعنوان لقسم كبير من مُذكراته اليومية التي أفردها بشكل استثنائي، لتلك المغامرة التي قرر وهو يودع زملاء حفلة التعارف التي أقامها البنك الفرنسي لعملائه على شاطئ أحد فنادق دبي الفخمة، ألا عودة عن المضي في مشروعها الخطر، وألا تراجع، مهما يكن، عن ذاك الاندفاع المجنون للتنقيب عن الذهب التركي الذي حكت عنه، وعن أبطال إخفائه في مكان مجهول من الأمكنة التاريخية الأثرية العديدة في مدينة رسول الإسلام الأعظم صلى الله عليه وسلم الأساطير

حقيقةً لم يتم اختيار العنوان ذاك إلا بعد أن سمعها مهند من قِبل عدد من المصلين الذين اتفقوا على لفظها لسبب غامض وهم يهرولون للحاق بإحدى الجنازات المتجهة مع مشيعيها إلى مقبرة

Twitter: @ketab_n

البقيع القريبة من المسجد النبوي. كان الـمُنصت لتلك الكلمة يسند ظهره على أحد أعمدة المسجد الكبير، وقد مد رجليه وأمسك بين كفيه بالقرآن الكريم محاولاً التركيز في قراءته بدون جدوى، لحظتها سمع من أحدهم.. من اثنين.. من ثلاثة وهم يمرون بجانبه لفظة.. لاشيء.

عندما عاد مهند بعد صلاة العصر من يوم اللا شيء ذاك عنون - على الفور - الصفحات الأخيرة من مذكرات مغامرة الذهب التركي، بذاك المسمى الذي كره تدوينه في أول الأمر، ثم ما لبث أن لقى هوى في نفسه فيما بعد.

بدأت تلك الصفحات الختامية كالتالي:

" عند النـزع الأخير لروح الإنسان الشفافة غير المرئية، لا بد أن كل معارك الحياة للمحتضر..مع نفسه..أو مع الآخرين..مع من يعتقد أنه يحبه.. أو مع من يؤكد أنه عدوٌ له..مع الماضي الذي يريد إخفاءه..أو مع الحاضر الذي يرغب أن ينتصر عليه..مع المستقبل الذي يود لو يعرفه ليغير مساره، كل تلك المعارك تصبح وحشرجة نفس الهالك تمزق الضلوع وتزلزل قلوب مَن تحلق حوله.. بلا معنى! إنها أوهامٌ غذتها جنون المطامع وجموح الاستئثار ومشيمة التوحش عنده؛ لكن "لاشيء" التي هي محصلة علم الـمُقبل على الفناء، لا بد منها.. لا بد من دروسها واعتقادات النجاح والرسوب في فحوصها المختلفة المرهقة..ثم

Twitter: @ketab_n

يأخذ المخدوع وثيقة اللا شيء المدون فيها كل تلك المعارك التافهة المجنونة، ليصرخ قبل أن يفض ما فيها من اللاشيء: هذا هو كتابه؟

رحلة الخداع التي قد تطول أو تقصُر، قد يلوح منها - أحياناً - بُرعم زهرة في حقل يئس الزارعون من استصلاحه وإنباته، (القد) هذه هي بقية فصول قصة الكنــز التركي التي صنعها أبطالٌ ممن بالإمكان إدخالهم في تنميطات الجنون أو لوائح المغامرين مدعي البطولة المشهورة!

في العاصمة الأردنية عمان التقيت كل المغامرين من أبناء وطني ومن الأشقاء والأصدقاء الذين احتاج بعضهم لتأشيرة زيارة، بينما تمتع بعضهم الآخر بوضعية الإقامة عبر كفلاء سعوديين أو كمستثمرين أجانب، وبهذا اكتمل نصاب الباحثين عن الكنــز التركي في أواخر كانون الثاني/يناير.

قبل يوم من سفر الجميع إلى جدة طلبتُ من الزملاء أن أبقى، وحدي، يوماً آخر إضافي في العاصمة الأردنية، بعد أن أعطيت الجميع عُذراً غير حقيقي لتأخري، الذي لم يكن له سببٌ ظاهري سوى أن اجتمع بنفسي، مرة أخرى، وفي الغرفة نفسها التي شهدت حديثي الداخلي قبل لقاء تحسين فواز ومكاشفته لي لأسطورة ذهب الباشا والبك. في نفس الغرفة التي شاهدتُ عبر نافذتها ثلج عمان الشتائي أواخر سنة 2001م.

Twitter: @ketab_n

في تلك الـحُجرة استعدتُ ذكريات يوم الثلج وخرائطه، واسترجعتُ ممانعتي الأولية لمجرد الدخول في جلبة أي نوع من أنواع خبل أساطير الذهب التاريخي وخيالات الباحثين عنه.

وجدتُ بعد تلك السنوات وبعد معاركي مع الآخرين، ومعاركهم معي أن الجنون الذي أظهره تحسين لا يقل عن الجنون الذي أفعله بنفسي ويُفعل بي كلما أنهيت أسطر كتاب أو خرجت من تجربة علاقة إنسانية وأنا أنزف لوعةً وأسى وفجيعة، بل إنني وجدتُ في لحظات معينة أن الجنون الذي وعدني به تحسين قد يكون سلوى حقيقية لما مضى وقد يكون أيضاً ترياقاً لمرض القلق من القادم.

قبل مغادرة جمع المغامرين عمان، عقدنا سوياً اجتماعاً موسعاً حاولنا وضع تصور تاريخي عن سير الأمور منذ فقد مختار بك الرسالة بالغة الأهمية، والتي أُرسلت معه من القيادة التركية إلى حاميتها العسكرية في المدينة المنورة بقيادة فخري باشا:

الكنـز الذهبي الذي تعرضت عربات القطار التركي الحجازي وهي تحمله في ربيع سنة 1917م، نجا من السرقة والاستيلاء بفعل حيطة مختار بك ودهائه، وبفعل أرواح الجنود الأتراك التي زهقت وهم يدافعون عن شيءٍ ما، بالغ الأهمية في عربات القطار التي كانت رصاصات الثورة العربية تُطلق عليها من كل اتجاه؛ طبعاً

Twitter: @ketab_n

كتب مختار بك وقائده الباشا رسائل فيها كثيرٌ من الشبه بالرسائل المبعوثة من إستانبول، والتي تشير إلى طريقة توزيع الثروة الذهبية أو إخفائها إن لم يكن بالاستطاعة القيام بالمهمة الأولى.

أرفق الداهيتان مع الرسائل البديلة المزورة خرائط مُضللة لتشتيت انتباه المغامرين والسارقين والباحثين عن الثروات والكنوز، أما الذهب وكنوزه، وبعيداً عن الخرائط المزورة ورسائلها فإنه قد أُخفي في مكان، أو أكثر، غير معروف، وللوصول إلى هذه الأمكنة، أو أكثر، فلا بد من الوصول إلى حفرة عميقة يرقد في داخلها كاشف الذهب والدليل الإرشادي للوصول إليه، أي بمعنى أننا أمام مرحلتين من الكشف، والصعوبة في الأمر أن المرحلة الأولى التي لا بد منها، يقف بينها وبين أحلام المندفعين بلا تروٍ للكشف عنها عائق ضخم، هذه المتاهة من المعرفة ذات النوع الخاص تتلخص في تلك الكلمات: أن لا تطابقَ، تماماً، بين الخريطة ووثيقتها المزيفة التي سُرقت من مختار بك في دمشق، وبين الخريطة والوثيقة الأخرى التي كان يظن أنها سُرقت من فخري باشا في مالطا، وهذا يعني القيام بعمليتي حفر في مكانين مختلفين لمعرفة أيهما هو طريق دهليز الكنـز الأسطوري.

الخريطة الأولى التي أكد صدقيتها تحسين الفواز تُشير إلى أن

Twitter: @ketab_n

أعمال الحفر لا بد أن تكون في الوسط تماماً بين شارعي سالم مولى أبي حذيفة وسليك بن مسحل وهذان الزقاقان[1] الضيقان، والقصيران يقعان شرق وشمال مجمع مدارس طيبة المقابل لإمارة المدينة المنورة ومسجد العنبرية، أما المكان الثاني والذي يمكن ألا يكون ذا شأن، ولا يحتاج إلى القيام بالتنقيب فيه وحوله إن صدقت وثيقة تحسين، فيقع غرب مسجد العنبرية بجوار فرن يُسمى فطائر الشلال المجاور لمركز ومخابز زياد، والإشكال هنا أن الشيخ بندر السعد يؤكد هو الآخر أن الوثيقة التي في حوزته - لا غيرها - هي الأقرب إلى الحقيقة التي تقول: إن طريق الثراء غير المسبوق هو هناك. .بجوار المخبزين اللذين لا يعرف صاحباهما أنهما يُجاوران ما لا تقدر العقول على تصديقه مهما حلق الخيال في عالم الـمُعجزات والأساطير.

في منتصف شباط فبراير تحركت قافلة المغامرين المكونة من عدة سيارات صغيرة فارهة، وأخرى يختلط فيها الدفع الرباعي بعربات الشحن الممتلئة بأدوات الحفر وتحسس المعادن، ومعدات مساعدة لمثل هكذا أشغال. .

سكن جمع الباحثين عن الذهب التركي في فندق الأنتركونتننتال - دار الإيمان المقابل للجهة الشمالية للحرم النبوي الشريف، وتم

---

(1) الزقاق يقصد به الشارع الضيق.

Twitter: @ketab_n

اختيار فندق شيراتون سلطانة البعيد عن الحرم ووسط المدينة المنورة لسكن المساعدين والعمال الذين تم اختيارهم بعناية وبدون إشعارهم بأنهم سيقومون بالتنقيب عن كنـز أسطوري عجيب. كل ما قيل لهم أن آثاراً إسلامية قديمة قد تكون مسكوكات أو مخطوطات مُخبأة في قوالب من رصاص، وأن هذه الآثار قد أُعطي لبعض الجهات حق البحث والتنقيب عنها، وبدون استخدام أسماء وصِفات اجتماعية مثلما تمثله أسماء مهند السعدي وبندر السعد فلن يُمكن تمرير مثل ذاك الإدعاء على المساعدين غير الـخُلص، والذين لا يعلمون كما تعلم القلة بما هم مُقبلون عليه من مخاطرة كبرى.

قبل عقد الاجتماع الأخير لشرح كيفية العمل وأوقاته والأعذار التي سنقوم بتسويقها للعمال والمساعدين غير المطلعين عند اختيار مكان ووقت بدء التنقيب الأول، والذي اتجه الاختيار لأن يكون هو المكان الذي أرشدت له خريطة تحسين الفواز والواقع بين الشارعين المسميين بسالم مولى أبي حذيفة وسليك بن مسحل، قبل ليلة من ذلك الاجتماع الذي يسبق يوم التنقيب الأول في الثالث والعشرين من شباط فبراير انفردت بنفسي ساعات طويلة في الليلة السابقة لذلك الاجتماع لأطرح على نفسي أسئلة كثيرة:

هل أنا مغامر مثل الآخرين من أجل المال وحب كشف

Twitter: @ketab_n

الثروات والكنوز الأسطورية؟ هل التيه النفسي الذي كنت أعيش قسوته أيامها هو دافعي الأول والأخير للقيام بتلك المخاطرة ولا شيء غيره؟ هل وقعت أسير جاذبية بعض رفقاء رحلة الجنون وأنا الذي كنت أظن في السابق أن طغيان تأثيري الشخصي عليَّ وعلى الآخرين خندق أمان لي تجاه الضعف البشري الذي يعتري كل إنسان - وأنا منهم بالطبع - عندما تُهاجم حشود جاذبة هذا وذاك الـمُستلب نفسياً وعقلياً، حتى لو كان صاحب الكاريزما هذا لا يظن في نفسه شخصياً تلك المواهب الفذة للتأثير في الغير الأطول منه قامةً في المعرفة والإطلاع، وما يظن أنه حصنٌ ضد أمراض الإغراء والاندفاع؟

بعد كل هذه الأسئلة خرجتُ بنتيجة غريبة: أنا من طينة كل هذه التأثيرات، لكن دافعاً أكبر وأهم بدا لي أنه هو الذي أخذني إلى سطح قارب المغامرة دون أن أنظر إلى البر من خلفي، ودون أن أعرف مهارة الربان ومعادن رفقاء رحلة الأمواج المتلاطمة التي ستأخذنا إلى شيء غامض..أو لا شيء!

الـمُتغير والباعث الجديد لم يكن إلا ذلك الاستحضار وأنا أسمع من رفقاء المغامرة لقصص الكنـز التركي الجانبية، وكل تلك الوقائع والأحداث المتداخلة: قصص حب الطرف الواحد..قصص الوله المجنون لـمختار بك، وعذابات غرامه بزوجته ناجية. تمثلت أمامي مشاهد قديمة لعنفوان مقاومة فخري باشا ومن بقي معه، تلك

Twitter: @ketab_n

الملحمة التي تجاوزها التاريخ بصفاقة كما تجاوز غيرها. شخوص مثل: ناجية وهي تحتضر وتهمس في أذن حبيبها البك بتلك الكلمات التي لطالما تخيلت مضامينها، لا يمكن إلا أن تكون حاضرة مثلها مثل فجيعة كبير المهندسين العثمانيين بابنه عبد الحميد وهو يراه يدفع بعض أثمان الحروب التي يدفع عادةً المدنيون كما العسكريون أثماناً باهظة من أرواحهم وأرواح من يحبونهم مُقابلها، ثم تنتهي تلك الحروب بتوقيع معاهدات صلح. . وحتى تحالف!

. . بكيت. . نعم بكيت! وأنا أسترجع خيالاً، طفولة فايزة المعذبة وهي ترتعش من البرد ويدها تمسك بوهن بيد والدها المعذب من فقد الأحباء في دمشق، بعد أن دفن عشقه وما أتى به ذاك العشق النادر في المدينة التي دافع عنها وحكومة بلاده تطالب بالتسليم السريع المُشابه لهزائمها الأخرى في أنحاء الأماكن الواسعة التي كانت تتحكم في شؤونها.

اليد القوية التي لم تتعود إلا على أمر إطلاق الرصاص والقذائف والتحامات السلاح الأبيض، هل يمكن أن تزيلها المخيلة، لتحل بدلاً من ذلك ارتعاشات نفس القبضة وهي توقع أمر التنازل والاستسلام؟!

رحلات المنافي لأهالي المدينة المنورة ورعبهم وهم في وسط

Twitter: @ketab_n

حروب لا تعنيهم بين الدول والثوار، أيمكن أن تمر هكذا بسهولة دون أن تُدونها الأرواح المتعاضدة قبل الأنامل؟

شيئاً فشيئاً جاء دافع الذهب والكنوز متأخراً كثيراً عن استلهامي لكل ذاك التاريخ في رقعة من الأرض، شهدت وقائع متداخلة تتغير الأحكام عليها حسب مُتخيل مجرياتها.

لاحظ هذا كل زملاء البحث عن الكنـز التركي، وأنا وإياهم نناقش خطوات العمل الأخيرة، تيقن الآخرون أنني وقعت في أسر هوى مجريات قصص الحب والنكران. .حكايات النصر والهزيمة. .ومرويات القلوب المحملة بالأسى والعذاب، لكن كل هذا لم يكن يهم، حسب وجهة نظرهم، مادام أن استلاب الخيال ذاك لا يوقف اندفاع الرجل الأول وورقتهم الرابحة في مشروع البحث عن ثراء الأقدمين، صوب اليوم الأول الذي سيُسمع فيه صوت اصطدام المعاول بسبائك الذهب التركي المخبأة منذ أوائل القرن العشرين في مكان ما، في أراضي المدينة المنورة.

. . .ماذا دار في اجتماع العمل ذاك غير معرفة الرفقاء بسفري الاسترجاعي الـمُتخيل نحو مجاهل تاريخ غارب فيه الكثير من الغرائب؟ اتفقنا على تواري الشركاء غير السعوديين عن واجهة الأحداث، وأن يبقوا مراقبين لما ستؤول له الأمور، كما تم في اللقاء التأكيد على أنني والشيخ بندر السعد سنتحمل وحدنا مخاطر

Twitter: @ketab_n

تنفيذ الجانب الأهم والعملي من المهمة. العمال - مثلاً - الذين سيقومون بأعمال الحفر والأشغال في الموقع الأول سيرتدون ملابس عليها شعار شركة تقوم من الباطن بتنفيذ إدخال خطوط الهاتف الثابت، وعليهم أن ينهوا مهامهم في ساعات الصباح الأولى يوم الرابع والعشرين من شباط/فبراير 2005م، ولهذا فإن وجود كرافان بجوار المشروع أتواجد أنا والشيخ بندر فيه ومعنا خرائط الموقع الأول إلى جانب حضورنا الشخصي سيعطي للعمال المتعاقد معهم شيئاً من الاطمئنان إذا اكتشفوا أن البحث عن الآثار والمسكوكات الإسلامية القديمة يتعارض مع مهام الشركة المنوي ارتداء ملابسها، وحاولتُ أنا وصاحبي - بنجاح نسبي - أن نزيل ذلك الالتباس بأن أوضحنا لهم أن الترخيص الـمُعطى لنا للتنقيب يُجيز هذا التمويه من أجل عدم إثارة انتباه العامة وتساؤلاتهم عن أشياء مخبأة في أرض مدينتهم التاريخية.

. . .وبالفعل وأوائل المصلين يخرجون من المساجد كانت آليات الحفر الخاصة التي استقدمناها من جدة قد أخرجت كل أحشاء الممر الضيق والواقع بين شارعي سالم مولى أبي حذيفة وسليك بن مسحل، وهذا الموقع لا يبعد إلا أمتاراً قليلة عن محطة سكة حديد الحجاز التي حجزت بينها وبين موقع التنقيب منشأة مجمع مدارس طيبة.

إستمر العمل الجاد والمرهق حتى قُبيل ظهر يوم الرابع

Twitter: @ketab_n

والعشرين من شباط/فبراير دون أن تظهر عراقيل ومفاجآت لا من قِبل المارة أو من قِبل جهات مسؤولة أخرى. .لكن المفاجأة العظمى والخيبة الكبرى هي أن المكان الذي دلت عليه خريطة تحسين الفواز كان خالياً من أي شيء ذي قيمة سوى من هياكل وأسماء جنود يبدو أنهم من المحاربين الأتراك الذين قاوموا هجمات الثوار حتى آخر طلقاتهم.

أمرتُ أنا والشيخ بندر بوقف الحفر بعد أن تجاوزت مساحة التنقيب ما أشارت إليه خديعة مختار بك، ولتبدأ بعدها مظاهر الخيبات المتعاظمة على مُحيا الرفقاء والتي لم يُخفف من وقعها إلا الآمال بأن تكون وثائق وخرائط الشيخ بندر السعد أكثر مصداقية. .وإلا ففواجع فقدان المال والوقت والآمال في طريقها إلى التشكل في مظاهر. .الله أعلم كيف ستكون!!

في ساعات صبح اليوم التالي. . الخامس والعشرين من شباط/ فبراير عدنا من جديد لننبش أمكنة ما قد قيل للشيخ بندر السعد أنها الوثيقة الأهم، والتي سُرقت من الباشا في سجنه بمالطا.

الموقع الذي أشارت له الخرائط المرفقة عبارة عن حفرة بعمق ليس بالكبير، وبطول خمسة أمتار، وتأخذ من الشارع المُلاصق لدُكانين يبيعان الفطائر والخبز، ما قد يزيد قليلاً عن ثلاثة أمتار محاذية للرصيف الغربي للدكانين.

Twitter: @ketab_n

في هذه المرة كان فريق العمل يرتدي ملابس شركة إصلاح أعطال قساطل المياه المتكاثرة في تلك الأنحاء، وفي نفس الوقت، وبالطريقة السابقة وبنفس التواجد للشخصين المهمين للتغطية لهكذا عمل، أُتممت المهمة الخطرة بسلام، لتحدث بعدها أم المفاجآت!

...لا شيء!!

نعم لا شيء كان هناك؛ الوثيقتان وخرائطهما المرفقة كانتا مزورتين بإتقان من قِبلِ شخصين أحسنا القيام بدور المعتدي عليهما بعد مُتابعة مضنية لها، لقد وفى بوعدهما الذي قطعاه على نفسيهما حتى وكل شيء ينهار من حولهما.. الحب والجيوش والدول وكرامة الإنسان.

لم يكن يعنيني بعد أن تم إعلان انتهاء عمليات الحفر والتنقيب الفاشلة، تلك الوجوه العابسة الـمُكتئبة من رفقاء المغامرة، وهي تجتمع للمرة الأخيرة لتوزيع أنصبة الخسائر والخيبات، ما كان يعنيني تلك الوريقات التي وجدها العمال أثناء التنقيب النهائي عن الكنـز التركي.

سألت الآخرين أن يمنحوني مكافأة صغيرة على مشاركتي لجنونهم الغريب.. فوافقوا! حصلت على الوريقات المهترئة، والتي أكد أحد الشركاء الأتراك أنها بلغة عثمانية قديمة ليس لها علاقة بالذهب والكنوز، وأضاف الصديق: أن الكلمات العثمانية القديمة

Twitter: @ketab_n

التي يجيد قراءتها قد كتبها فخري باشا كما يبدو وتم حشرها في قارورتين، الأولى رسالة مُقتضبة وجهها إلى نفسه وإلى كل جندي مجهول..يقول فيها:

"إلى كل محارب..انظر إلى قضيتك..تفحص عدالتها..وإن شككت في وجاهة قتلك للآخرين ومقتلك فارم سلاحك وعد إلى إنسانيتك..من أجل الإنسان وحده، دع قلبك وروحك يُخبرانك على خير الطرق..غير طريق السلاح الذي أحمله الآن حائراً نادماً..والسلام"!

التوقيع: عمر فخر الدين باشا بن محمد بن نحيف بن عمر أغا.

...الورقة الثانية فيها إشارة من الباشا إلى استحسانه لأبيات ذُكر أن صديقه مختار بك قد قرأها يوماً عليه.. تقول:

آه.. فلنبذل قصارى جهدنا الآن

قبل أن نهبط سوياً تحت التراب

تراب يدخل التراب لينام تحت التراب

بلا قوت بلا أغنية بلا معنىً وبلا نهاية[1].

إنتهت قصة الكنز التركي إلى لا شيء سوى تلك الكلمات التي

---

(1) رباعية لعمر الخيام مُترجمة للغة التركية القديمة.

Twitter: @ketab_n

ختم بها الباشا وصديقه البك حياتهما الملتبسة في المدينة المنورة، حياة الآمال العريضة والمتبوعة بكل أنواع الانكسارات كأنني استحضرها الآن.

في الأيام التي تبددت أحلامي وأحلام الآخرين بالكنوز التركية المخبأة كانت الطبقات الوسطى في بلادي تفقد مليارات الريالات في لعبة اسمها سوق المال، تلك الأيام نفسها أعطت للناس آمالاً أخرى بأن التصحيح وارد في كل لحظة، وأنهم إن أرادوا أن يعوضوا ما قد سُلب منهم، فلا بد أن تُضخ سيولة جديدة منهم، وأن يكتتبوا في شركات عملاقة يحتفظ مالكوها بأكثر من ثلثي أسهمها!

في تلك الأيام الأوقات المليئة بالإحباط صدرت الصحف في بلادي وهي تحمل أخبار مزيد من العنف والعمليات الإرهابية، وعناوين جانبية عن اصطدامات فكرية بين غلاة حُماة الدين والفكر الليبرالي.

في نفس تلك الأيام تلقيتُ إخطاراً بأن روايتي الثانية قد تم منع توزيعها وبيعها في بلادي رغم تأكيدات الانفتاح والشفافية، أيامها تطايرت من حولي أخبار وفيات الأهل والأصدقاء، واستنساخات أزمات أمتي الصغيرة والكبيرة، سمعت حينها عن عذابات فراق محبين كانوا قد أقسموا ألا يفعلوا غير الاقتراب مع من ارتبطت أرواحهم بهم.

Twitter: @ketab_n

أيام خيبات الكنـز التركي أثارت في داخلي براكين ثورة على كل شيء، ولهذا فلا غرابة أن أختم صفحات مذكراتي عن أيام الخسران، بتلك الكلمات التي رددها مشيعو جنازة خرجت لمقرها الأخير ذات يوم من أيام أواخر الشهر الذي لا بد أن أعنونه كما غيره من شهور بني الإنسان بـ. . . لا شيء!!"

* * *

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

البحث عن الكنز الذهبي الذي قيل أن الأتراك قد خلفوه وراء ظهورهم وهم يغادرون آخر معاقل سلطانهم في جزيرة العرب قبل أقل من مئة عام، لا يمثل جوهر هذه الرواية. الأهم من كل هذا هو ذاك البحث عن مكنونات النفوس البشرية التي صنعت قصة ذاك الكنز وأسطورته. وعن تلك الخبايا التي تمترست وراء زوايا مجهولة داخل نفوس الباحثين في هذه الأيام عن ذاك الكنز وحكاياته العجائبية.

نشوء الدول وسقوطها.. الحب والخيانة.. العشق والموت.. البحث عن الذات والثروات.. المثاليات ونقائضها.. كل تلك القيم والظواهر وما بينهما.. هي مادة هذه الرواية وبناؤها.

ISBN 9953-71-309-0
9 789953 713090